الفصل الثاني

مواهب وأدوات القرضاوي الدعوية

يجمع كثير ممن عرفوا الشيخ ؛ من وافقوه ومن خالفوه، أن القرضاوي استطاع أن يحصل من أدوات الداعية ومواهبه، ومؤهلاته، وخصائصه؛ ما جعله يتبوأ هذه المنزلة في عالم الدعاة والمصلحين .

ومن أبرز هذه المواهب والأدوات :

١ - فهم دقيق :

تعد صفة الفهم من أعظم نعم الله تعالى على خلقه، وفي هذا يقول الإمام ابن القيم في كتابه القيم «أعلام الموقعين» : صحة وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده؛ بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما أو بهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم(١).

وقد سأل رجل علياً ﷺ هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء ؟ قال : «لا إلا فهماً يؤتاه عبد في كتاب الله ، وما في هذه الصحيفة»(٢).

وفي المقابل فإن من أعظم المصائب التي يصاب بها المرء أن يحرم نعمة الفهم ، وعندئذ يرى المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً، ويصبح عنده الحق باطلاً، والباطل حقاً، فيشك في موضع اليقين ، ويستيقن في موضع الشك ، ويجزم في موضع الشك ، ويرتاب في موضع الجزم، بل يصير الحلو عنده مراً ، والمر حلواً ، والطيب لديه خبيثاً ، والخبيث طيباً ، وهؤلاء هم الأخسرون أعمالاً ؛ الذين قال

---

(١) انظر : أعلام الموقعين الإمام ابن القيم ج١ ص ٨٧ .

(٢) رواه البخاري في العلم (١١١) عن علي .

فيهم ربنا : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

والفهم الذي نعنيه ليس هو مجرد العلم ، بل هو أرقى درجات العلم ، وهو ما قال عنه القرضاوي موضحاً تعبير الإمام الشهيد « بالفهم » بدل « العلم » في رسالة التعاليم قائلاً: وإنما عبر الأستاذ البنا عن « العلم » بـ « الفهم » لأنه هو المقصود من العلم ، فليس العلم بكثرة الرواية بقدر ما هو عمق الدراية ، ولهذا علق القرآن والسنة الخير « بالتفقه في الدين » لا بمجرد « تعلم الدين »[1].

هذا الفهم الدقيق إنما يؤتاه داعية حصيف ؛ فيشخص العلة التي بين يديه ويهيئ لها الدواء المناسب من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وهذا الفهم العميق هو الذي جعل الشيخ يقعد للدعوة ، ويؤصل لها ، ويظهر ذلك جيداً في الخطوط العريضة التي ذكرها الشيخ في ملتقى الفكر الإسلامي الثامن عشر بالجزائر ١٩٨٤م ؛ والتي سجلها الشيخ ترشيداً للصحوة، وضمنها عشرين نقطة أساسية دمجها الشيخ فيما بعد إلى عشرة وسماها الشيخ الخطوط العشرة لترشيد الصحوة وهي :

١ – من الشكل والمظهر إلى الحقيقة والجوهر .
٢ – من الكلام والجدل إلى العطاء والعمل .
٣ – من العاطفية والغوغائية إلى العقلانية والعلمية .
٤ – من الفروع والذيول إلى الرؤوس والأصول .
٥ – من التعسير والتنفير إلى التيسير والتبشير .
٦ – من الجمود والتقليد إلى الاجتهاد والتجديد .
٧ – من التعصب والانغلاق إلى الانفتاح والانطلاق .
٨ – من الغلو والانحلال إلى الوسطية والاعتدال .
٩ – من العنف والنقمة إلى الرفق والرحمة .

---

(١) انظر : شمول الإسلام القرضاوي ص٢٣ .

١٠ ـ من الاختلاف والتشاحن إلى الائتلاف والتضامن[١].

٢ ـ إيمان عميق :

لا يستطيع داعية مهما أوتي من المواهب والأدوات؛ أن يحصل النجاح في دعوته إن لم يكن على إيمان عميق بدعوته التي يدعو إليها ، وبقدر إيمان الداعية بدعوته ، بقدر ما يكتب له النجاح .

هذا الإيمان هو: الذي يجعل الداعية متعالياً على كل مساومة ، رافضاً لكل تنازل ، متحملاً لكل أذى ، إنه الإيمان الذي جعل محمداً ﷺ يقول لعمه أبي طالب ولقومه : أترون هذه الشمس ؟ قالوا نعم . قال : ما أنا بأقدر على أن أدع ذلك ، على أن تستشعلوا لي منها شعلة»[٢].

وفي رواية: «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

هذا الإيمان العميق هو الذي جعل إمام أهل السنة أحمد بن حنبل يصبر في محنته ، دون أن تلين له قناة ، أو يضعف له يقين .

وهو هو الإيمان العميق الذي جعل شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحت فهي معي لا تفارقني ، إن حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة[٣].

وهو هو الإيمان العميق الذي جعل شهيد الإسلام سيد قطب يقول لزبانيته وجلاديه : إن السبابة التي أشهد بها في كل صلاة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ﷺ لا يمكن أن تكتب سطراً ، أو عبارة فيها استجداء ؛ فإن كنت مسجوناً بحق فأنا أرضى بالحق ، وإن كنت مسجوناً بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل .

---

(١) انظر : أين الخلل ص٨٣ ، والصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ١٤ .

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٩١١٧) وأبو يعلى (١٧٦١٢) والبزار (١١٥٦) وذكره الألباني في الصحيحة (٩٢).

(٣) انظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب ابن القيم ص ٦٩ ط الأولى دار الكتاب العربي ١٩٨٥م.

وهو هو الإيمان الذي عبر عنه الإمام حسن البنا بقوله : إن تكوين الأمم وتربية الشعوب وتحقيق الآمال ومناصرة المبادئ تحتاج من الأمة التي تحاول هذا، أو من الفئة التي تدعو إليه على الأقل إلى قوة نفسية عظيمة تتمثل في عدة أمور:

١ - إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف .

٢ - ووفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر .

٣ - وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل .

٤ - ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له .

يعصم من : الخطأ فيه، والانحراف عنه ، والمساومة عليه، والخديعة لغيره(١).

وقد تعلم الشيخ القرضاوي أن الإيمان العميق بدعوته أمر واجب ، ومن ثم فقد ثبت الشيخ مع إخوانه ثبات الجبال الرواسي ، ولم يطأطؤا رؤوسهم للباطل، وقد سجل الشيخ ذلك شعراً بقوله :

تالله ما الطغيان يهزم دعوة يوماً وفي التاريخ بر يميني(٢)

وإيمان الشيخ بدعوته هو الذي جعله يقول بملء فيه في خطبة الجمعة : إذا كان كل من يدافع عن وطنه ويستميت في الدفاع عن مقدساته إرهابياً، فأنا أول الإرهابيين وأدعو الله : اللهم إن كان هذا إرهاباً فأحيني إرهابياً ، وأمتني إرهابياً ، واحشرني في زمرة الإرهابيين(٣).

وهو هو الإيمان الذي جعله يعلنها من على منبر مسجد «عمر بن الخطاب» حين حذره بعض المخلصين من امتداد أيدي الموساد إليه نظراً لكثرة حديثه عن اليهود وخبثهم فقال الشيخ : إنها الميتة الهنيئة التي كان يدعو بها شيخي البنا وهي أن يفصل هذا عن هذا وأشار إلى رأسه وجسده .

---

(١) انظر : مجموعة الرسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص ٤٥ .
(٢) انظر: نفحات ولفحات ص ٦٨ ، ٦٩ .
(٣) انظر : جريدة الشرق القطرية عدد ٥٠٢٨ .

وهو هو الإيمان العميق بدعوته الذي جعله يقول عن استمساكه بدينه وشرعه ووصف أعدائه له بالرجعية فقال :

يـا رب إن تـك هـذه رجعـية فاحشرني رجعيا بيوم الدين ! (١)

٣ ـ خلق حسن (٢) :

من أبرز صفات الداعية الناجح أن يؤتى خلقاً حميداً، ومن يؤته فقد أوتي خيراً كثيراً، ودعوة الداعية للناس ليست مجرد كلام يقال، أو ألفاظ تنمق، أو كلمات ترتب ، فما أكثر أصحاب الألفاظ الجذلة ، والعبارات الرصينة على مر التاريخ ، ولكن فرق بين من يدعو بخلقه ولفظه ، وبين من يدعو بلفظه وينهى خلقه ما أمر به لفظه .

وقد قال لقمان الحكيم : إن العالم يدعو الناس إلى علمه بالصمت والوقار.

ورحم الله من قال : من لم ينفعك لحظه ، لم ينفعك لفظه .

ولله در من قال : من لم تهذبك رؤيته ، فاعلم أنه غير مهذب، ومن لم ينعشك عبيره على بعد ، فاعلم أنه لا طيب فيه .

ومن ثم كان الخلق الحميد وصف ملازم لكل داعٍ ، فهو إن لم يسع الناس بعلمه وماله، وسعهم بخلقه وفضله ، وقد قال الشاعر :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

ويُجمع من لاقى الشيخ بأنه في ميدان الخُلق لا يقل عن ميدان العلم ، بل يزيد ، ويحدثني الدكتور علي القرة داغي وهو أحد تلامذة الشيخ فيقول : عاشرت الشيخ قرابة الثلاثين عاماً ، ويعلم الله أني ما رأيته يوماً يغتاب أحداً قط، وإذا ذُكر أمامه أحد خصومه، فلا يلبث الشيخ أن يغير الموضوع .

ولك أن تقول : بأن المتقرب من الشيخ يتعلم من أخلاقه قبل أن يتعلم من علمه .

---

(١) انظر : نفحات ولفحات ص ٦٨ .

(٢) للمزيد راجع ما ذكرته الفصل الأول (السيرة الشخصية والحياة الدعوية) صفاته وأخلاقه .

ولهذا فإن الشيخ كان بأخلاقه مع من حوله: أرق من نسمات الهواء، وأحب إليهم من الماء العذب الفرات على الظمأ، ورحم الله حافظ إبراهيم يوم أن قال:

والناس هذا حظه مال وذا ... علم وذاك مكارم الأخلاق
والمال إن لم تدخره محصناً ... بالعلم كان نهاية الإملاق
والعلم إن لم تكتنفه شمائل ... تعليه كان مطية الأخلاق
فإذا رزقت خليقة محمودة ... فقد اصطفاك مقسم الأرزاق

٤ ـ قلب حي:

من نعم الله على الشيخ أن آتاه الله قلباً حياً؛ فكانت هذه الحياة شعلة لا تخبو، ومصباحاً لا ينطفئ، وجذوة لا تخمد، ونوراً لا ينقطع، وكأني بالشيخ الغزالي رحمه الله يتحدث عن القرضاوي وهو يقول: الداعية روح مفحمة بالحق والنشاط والأمل واليقظة، فمهمته العظمى أن يرمق الحياة بعين ناقدة، وبصر حديد، حتى إذا رأى فتوراً نفخ فيه من روحه ليتقوى، وإذا رأى انحرافاً صاح به ليستقيم، إنه في المجتمع ناقوس الخطر يدق من تلقاء نفسه كلما عرض لتعاليم الإسلام ما يعكر صفوها ويعوق انطلاقها[1].

ولقد أحسن الشيخ عبد الله بن بيه حين قال عن الشيخ: إنه ضمير الأمة اليوم، ولسانها المعبر عنها.

هذا القلب الحي هو الذي جعل لكلمات القرضاوي روحاً، ويحيلها إلى كائن حي، ولهذا لم يكن بمستغرب عليه أن تحرك كلماته الساكن، وتوقظ النائم، وإن شئت فقل: وتحيي الميت. أما غيره فإنه يميت الحي، ويلقي على المتحرك من برودته ما يطفئ حرارته، ويخمد جذوته، وشتان بين هذا وذاك.

---

(١) انظر: مع الله الشيخ الغزالي ص ١٨١.

وهذا ما جعل الشيخ الندوي يقول للشيخ القرضاوي : إن في كلامك روحاً وحرارة خاصة وهذه قَلَّمَا تترجم .

وقال له آخر : إن في كلامك حرقة غير مصطنعة، تؤثر في سامعيك وهي هبة ربانية (١).

إن هذا القلب الحي هو الذي وصفه الشيخ بقوله : القلب الحي ، يعيش مع الله في حب وشوق ، راجياً خائفاً ، راغباً راهباً، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، كما يعيش في هموم الأمة على اتساعها ، ويحيا في آلامها وآمالها ، لا يشغله هم عن هم ، ولا بلد عن آخر ، ولا فئة من المسلمين عن الفئات الأخرى(٢).

ولهذا قالوا ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة ، وهكذا صاحب القلب الحي والقلب الميت .

٥ - عقيدة سليمة :

ومن مواهب الشيخ وأدواته الدعوية التي انطلق بها ، العقيدة السليمة ، وقد ترجم الشيخ هذه العقيدة سلوكاً في حياته ، وكلمات في كتاباته ، وقد ظهر للشيخ في العقيدة عدة كتب منها :

١ - الإيمان والحياة .

٢ - وجود الله .

٣ - حقيقة التوحيد .

٤ - الإيمان بالقدر .

٥ - الشفاعة .

٦ - موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى....

٧ - فصول في العقيدة بين السلف والخلف.

---

(١) للمزيد راجع ما ذكرته في (الفصل الأول) تحت عنوان: «صفاته وأخلاقه» صفة «روحانية الشيخ».

(٢) انظر: الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته ص ٧٦ .

والعقيدة التي رسخت في قلب الشيخ وقدمها لقرائه تقوم على دعامتين[1].

الأولى : النصوص النقلية من القرآن الكريم والحديث الصحيح .

الثانية : البراهين العقلية والعلمية ، التي لفت إليها القرآن بقوة ، والتي أمدنا فيها العلم الحديث بذخيرة هائلة تقمع الماديين ، وتفحم الملاحدة والمشككين [2].

كيفية دراسة العقيدة عند الشيخ :

ويفصل الشيخ كيفية دراسة العقيدة السليمة على النحو التالي :

١ – أن يكون كتاب الله تعالى ، وما يبينه من صحيح السنة ، هو المصدر الفذ للعقيدة المنشودة ، بعيداً عن الشوائب والزوائد والفضول ، التي لحقت بها على مر العصور وبهذا تبقى العقيدة على صفاتها ووضوحها وبساطتها .

٢ – أن نتبع منهج القرآن في مخاطبة العقل والقلب معاً من أجل تكوين الإيمان الصحيح .

٣ – الاهتمام بأدلة القرآن التي ذكرها لإثبات معتقداته ، وإقناع مدعويه والرد على خصومه ، وتفنيد ما يثيرونه من شبهات ومفتريات .

٤ – صرف الهمة إلى مشكلات العقل المعاصر ، والاشتغال بقضايا العقيدة الكبرى مثل : وجود الله ، وتوحيده ، والنبوة ، والحياة الأخرى ، والقدر ؛ أما المشكلات التاريخية مثل : خلق القرآن ، أو الصفات وعلاقتها بالذات هل هي عين ، أم غير ؟ أم لا عين ولا غير ؟ إلخ . فينبغي أن تدرس كتاريخ للفكر الإسلامي .

---

(١) يكاد يكون كل كتاب الإخوان الذين كتبوا في العقيدة يتفقون مع الشيخ في هاتين الدعامتين، بداية من البنا وانتهاءً بالشيخ مروراً بسيد قطب وسعيد حوى والغزالي وعمر الأشقر وعبد المجيد الزنداني ومحمد نعيم ياسين، وغيرهم؛ بل وغيرهم من الكتاب في العصر الحاضر .

(٢) انظر: الإخوان المسلمون ٧٠ عاماً ص ٣١٦ .

٥ – الاستفادة من ثقافة العصر ، وخصوصاً في ميادين العلوم البحتة كالفلك والطب والفيزياء وغيرها لتأييد قضايا العقيدة وتثبيتها .

٦– أن نتبنى طريقة السلف في وصف الله تعالى بما وصف به نفسه من غير تكييف ولا تمثيل، ولا تحريف ولا تعطيل. وهي الطريقة التي انتهى إليها أساطين علم الكلام من الأشاعرة وغيرهم، مثل أبي الحسن الأشعري في «الإبانة» والغزالي في «إلجام العوام عن علم الكلام» والفخر الرازي في «أقسام اللذات» حيث يقول فيه : « لقد تأملت المناهج الفلسفية ، والطرق الكلامية ، فلم أرها تشفي عليلاً أو تنقع غليلاً . ورأيت خير الطرق طريقة القرآن : أقرأ في الإثبات ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه: ٥]. وأقرأ في النفي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]. ومن جرب مثل تجربتي ، عرف مثل معرفتي » .

٧ – أن نتبع شبهات المبشرين والمستشرقين والشيوعيين وغيرهم من خصوم الإسلام وتلاميذهم ، والرد عليها رداً علمياً فكرياً بلسان العصر (١).

ويؤكد الشيخ ضرورة أخذ العقيدة من القرآن بعيداً عن شطحات المتكلمين أو فلسفات المتفلسفين فيقول : من أراد أن يعرف العقيدة الإسلامية نقية غير مشوبة ، بينة غير غامضة ، مخاطبة للعقل وللقلب معاً : فليعرفها من القرآن . ومن الخطأ الذي وقع فيه المتكلمون : اعتبارهم نصوص القرآن مجرد أخبار من الله تعالى ، لا تحمل دلائل وبراهين عقلية ، ، تقنع الطالبين للحق ، وتفحم المجادلين للباطل . مع أن القرآن حافل لهذه الدلائل (٢).

العقيدة التي تربى عليها الشيخ :

والعقيدة التي تربى عليها الشيخ هو وإخوانه من تلاميذ البنا ، ليست كلمات تحفظ ، ولا عبارات تردد ، ولا جدالات لا ينتج عنها أثر ، ولا ينتفع بها قلب .

إنها عقيدة كما يقول الشيخ : ترفض الشركيات والخرافات والأباطيل التي

---

(١) انظر : ثقافة الداعية ص ٨٠ ، ٨١ .

(٢) انظر : كيف نتعامل مع القرآن ص ٤٩

ألصقت بعقيدة التوحيد ، وتطارد الشرك بالتوحيد، والأباطيل بالحقائق، والبدع بالسنن ، والسلبيات بالإيجابيات .

إنها توحيد خالص لله تعالى، لا يشوبه شرك، يقين عميق بالآخرة لا يعتريه شك، وإيمان جازم بالنبوة لا يداخله تردد ولا وهم، وثقة مطلقة بالقرآن والسنة مصدرين للعقائد والشرائع والأخلاق والسلوك(١).

إن عقيدة الشيخ عقيدة سلفية ، نعم إنها سلفية حقيقية ، تحمل روحها وحقيقتها ، لا شكلها وجدليتها كما يتوهم البعض .

أما ما يثار حول آيات الصفات وأحاديثها الصحيحة ، والتي تثار بين أتباع المدرسة السلفية والمدرسة الأشعرية أو الماتريدية ، فللشيخ فيها رأي آخر ، إنه يرى أن المعركة ليست مع المؤولين لصفات الله ، بل مع الذين يجحدون الله بالكلية ، إن المعركة ليست مع الأشاعرة ولا الماتريدية ولا المعتزلة ؛ ولكنها في الأصل مع الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله أصلاً(٢).

رأي الشيخ في آيات الصفات وأحاديثها:

وللعلم فإن الشيخ في مسالة آيات الصفات يرى ترجيح مذهب السلف على رأي الخلف ، وهو في هذا موافق لشيخه البنا رحمه الله، يقول القرضاوي: وأنا أرجح رأي السلف - وهو ترك الخوض في لجج التأويل، مع تأكيد التنزيه - فيما يتعلق بشؤون الألوهية وعوالم الغيب والآخرة، فهو المنهج الأسلم، إلا ما أوجبته ضرورة الشرع أو العقل أو الحس ، في إطار ما تحتمه الألفاظ (٣).

هذا كلام الشيخ الذي ردده في كثير من كتبه، ولكنه أفصح عن أمر آخر أكثر إيضاحا لموقفه من قضية الصفات في كتابه: «فصول في العقيدة بين السلف والخلف» وسأنقل هنا موقف الشيخ ، يقول الشيخ حفظه الله:

أود أن أبوح بسر للقارئ الكريم، فقد كنت كوّنت رأيا منذ سنوات في

---

(١) انظر: الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته ص ٧٨ .
(٢) انظر: وجود الله ص ٧ .
(٣) انظر: كيف نتعامل مع القرآن ص ٢٩٣ .

موضوعنا هذا، وهو ما يتعلق بما سموه: (آيات الصفات) أو (أحاديث الصفات) ويتلخص هذا الرأي أو هذا الموقف في ترجيح المذهب المشهور عن السلف رضي الله عنهم، وهو: السكوت وعدم الخوض أو التفويض.

ولكني بعد أن عشت في الموضوع منذ سنوات، ثم عكفت عليه في السنتين الأخيرتين، وتوسعت في القراءة والدراسة والبحث والمقارنة بين أقوال المدارس المختلفة من المتكلمين والأثريين، أو السلف والخلف، أو الحنابلة وغيرهم،من المثبتين والمفوضين والمؤولين، من مبالغين ومعتدلين في كل فريق: اتضح لي بعد ذلك أمور لم تكن واضحة عندي من قبل بالقدر الكافي، ورأيت أن من التبسيط المخل: أن نسكت ونغلق أفواهنا عن الكلام في الموضوع، ونحسب أن القضية قد حسمت بذلك.

فالحق أن النصوص الواردة في الموضوع ليست كلها في مستوى واحد، لا من حيث ثبوتها، ولا من حيث دلالتها. كما أن المروي عن السلف في هذا الأمر ليس كله ذا مفهوم واحد أو نسق واحد.

فما خلاصة الموقف من هذه القضية التي طال فيها الجدال، واستحال إلى صراع ونزال، أو حراب وقتال؟

أولا: النصوص التي تضيف إلى الله تعالى صفات هي في البشر انفعالات نفسية، مثل: الرحمة والرضا والغضب، والمحبة والكراهية، والفرح والغيرة، والعجب ونحوها، وقد ثبتت بآيات القرآن العزيز، أو بالسنة الصحيحة: نثبت هذه الصفات لله سبحانه وتعالى، كما أثبتها لنفسه، في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ونحن مطمئنون كل الاطمئنان، ولا نلتمس لها تأويلا، إذ لا حاجة إليه، ولا نتوقف فيها، لأنها بّينة واضحة المعنى. وهذا هو مذهب السلف فيها.

ثانيا: النصوص التي تثبت الفوقية والعلو لله تعالى، نثبتها كما أثبتها الله تعالى لنفسه، لما جاءت به النصوص الغزيرة الوفيرة في القرآن والسنة.

كل هذه النصوص نثبت ما دلت عليه من وصف لله تعالى، ولكنا نفسر

هذا الإثبات بما فسره به المحققون من علماء المنهج السلفي، لا بما يفهمه السطحيون من الحشوية الظاهرية، وبعض غلاة الحنابلة.

ثالثا: النصوص التي يوحي ظاهرها بإفادة التجسيم والتركيب، لله عز وجل مثل النصوص التي تثبت لله تعالى: الوجه واليد واليدين والعين والعينين ونحوها، مما هو في المخلوق أعضاء وجوارح في الجسم. فهذه النصوص يرجح تأويلها إذا كان التأويل قريباً غير بعيد، مقبولا غير متكلف، جاريا على ما يقتضيه لسان العرب وخطابهم، وهذا التأويل ليس واجبا، ولكنه أحق وأولى من الإثبات الذي قد يوهم إثبات المحال لله تعالى، ومن السكوت والتوقف، ومن التأويل البعيد.

وهذا الموقف الذي اخترناه قد اختاره الأئمة المعتدلون المرضيون عند جمهور الأمة، مثل الإمام أبي سليمان الخطابي، والإمام أبي بكر البيهقي، والإمام أبي زكريا النووي، والإمام ابن كثير، والحافظ ابن حجر، وغيرهم[1].

لماذا يرجح الشيخ مذهب السلف:

وقد ذهب الشيخ إلى ترجيح مذهب السلف، ولم يكن هذا التأييد نابعا من هوى، ولا تماشيا مع الموجة التي تجعل بعضا من العلماء يحاولون عدم التعرض لها، وإنما كان الترجيح لأمور، أهمها:

أولا: أن العقل الإنساني قاصر عن إدراك كنه صفات الله تعالى، كما هو قاصر عن إدراك ذاته، فمن المحال أن يدرك المخلوق كنه الخالق، ويحيط المحدود المحدث الفاني العاجز بالكائن المطلق الكامل الأزلي.

ثانيا: أننا لا نأمن – إذا خضنا لجة التأويل، وصرفنا النصوص بإطلاق عن ظواهرها إلى معان نراها نحن بعقولنا أليق بكمال الله سبحانه – أن ننسب إلى الله تعالى من الأوصاف ما لم يرده، وننفي عنه من الصفات ما لم يرد نفيه. وبذلك نكون من الذين يقولون على الله ما لا يعلمون.

---

(١) انظر: فصول في العقيدة بين السلف والخلف. ص ١١٨ وما بعدها بتصرف.

ثالثا: أن السلف يخشون من فتح باب التأويل: أن يكون ذريعة لدخول الزنادقة والملاحدة وأعداء الإسلام الذين يريدون أن يهدموه من الداخل، كالباطنية ومن دار في فلكهم من الفلاسفة، ومنحرفي المتصوفة، وغلاة الفرق، ويعطيهم سندا، في صرف آيات الكتاب عن مدلولاتها وظواهرها.

رابعا: أن مذهب السلف أسلم بالإجماع، لأن فيه إثبات ما أثبته الله تعالى، ونفي ما نفاه في كتابه وعلى لسان رسوله، مع الجزم بنفي التكييف والتشبيه عن الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

خامسا: أن مذهب السلف مسلم به ومتفق عليه من الجميع، والأولى في قضايا العقيدة وأصول الدين: أن يعتصم الإنسان طالب النجاة بالمتفق عليه، فهو أحوط له، وأحزم لأمره، وأصون لدينه.

سادسا: أنا وجدنا عددا من كبار الذين خاضوا لجج التأويل، ونصروا مذهب الخلف، عادوا في أواخر أعمارهم إلى محجة السلف، وأيدوا وجهتهم[1].

كما أن الشيخ في مسألة آيات الصفات يرى ألا تجمع في مكان واحد كما يفعل البعض، فيتوهم الله شخصاً مكوناً من أعضاء يقول الشيخ ـ حفظه الله ـ: وتلك الحقيقة: أن تعرض هذه الصفات كما وردت في كتاب الله تعالى وسنه رسوله ﷺ، أعني: أن تذكر مفرقة لا مجموعة، فكل مسلم يؤمن بها ويثبتها لله تعالى كما جاءت.

فليس مما يوافق الكتاب والسنة جمعها في نسق واحد يوهم تصور ما لا يليق بكمال الله تعالى. كما يقول بعضهم: يجب أن تؤمن بأن الله تعالى وجهاً، وأعيناً، ويدين، وأصابع، وساقاً، ... إلخ. فإن سياقها مجتمعة بهذه الصورة قد يوهم بأن الله تعالى وتقدس كل مركب من أجزاء، أو جسم مكون من أعضاء..

---

(١) انظر: فصول في العقيدة بين السلف والخلف. ص ١٣٣ وما بعدها بتصرف.

ولم يعرضها القرآن الكريم ولا الحديث الشريف بهذه الصورة . ولم يشترط الرسول لدخول أحد في الإسلام أن يؤمن بالله تعالى بهذا التفصيل المذكور .

ولم يرد أن الصحابة وتابعيهم بإحسان كانوا يعلمون الناس العقيدة بجمع هذه الصفات ، كما تجمع في بعض الكتب المؤلفة في ذلك[1].

موقف الشيخ من العوام:

ولما كانت هذه القضية من القضايا الشائكة، والتي ربما يستعصي فهمها على عوام الناس، الذين لا يستطيعون الغوص في لجج العلم؛ فقد اختار الشيخ موقفا خاصا للعوام – وهو موقف ابن الجوزي، وإمام الحرمين، والغزالي – قال فيه:

والذي أوثره وأرجحه هنا أن نعتصم بأمور أربعة:

١– أن نثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله، فنصفه بما وصف به نفسه، وما تمدح لنا به، وأراد أن يعرفنا به من أوصافه أو أفعاله، ولا نخاف من إطلاقها مادام القرآن قد أطلقها، والرسول قد ذكرها، فلسنا أغير على ربنا منه عز وجل، ولا أغير عليه من رسوله ﷺ، ولا أحرص على التقديس والتنزيه لله جل شأنه منهما.

٢– ألا نزيد من عند أنفسنا على ما وصف به نفسه، أو نغير عبارة القرآن أو السنة بعبارة من عندنا، فهذا قد يدخلنا في مأزق، أو يوقعنا في مزلق، تزل به أقدامنا. وإنما نلتزم العبارات الشرعية كما وردت.

٣– ألا نجمع هذه الصفات أو الأفعال الموهمة لمشابهة الخلق في نسق واحد، أو في سياق واحد، بل نوردها كما أوردها القرآن، وكما أوردتها السنة في مناسباتها، وفي سياقاتها المختلفة.

٤– أن نؤكد أبداً ما دلت عليه النصوص القاطعة، وأجمعت عليه الأمة بكل طوائفها ومدارسها: سلفيين وخلفيين، من تنزيهه – جل ثناؤه – عن مشابهة شيء من خلقه بحال من الأحوال، وكل ما وصف الله تعالى به نفسه،

---

(١) الإخوان المسلمون ٧٠ عاماً ص ٣٤٣ .

في كتابه أو على لسان رسوله، مما يشترك فيه مع المخلوقين، فهو ثابت له سبحانه بما يليق بكماله وجلاله وعظمته، ويتنزه عن مشابهة المخلوقين فيه[١].

رأي الشيخ في الخلاف القائم بين أتباع السلف وأتباع الخلف:

وقد أغضب الشيخ موقف المثبتين من المؤولين، وموقف المؤولين من المثبتين، لأنه يرى أن الخلاف ليس خلافا كبيرا كما يتوهم البعض، وأنه لا يوجب تكفير أحد الفريقين للآخر، أو حتى تأثيمه وتضليله، أو تبديعه وتفسيقه. لذا قال الشيخ:

أعتقد أن الخلاف بين المنهجين أو المذهبين لا يوجب تكفير أحدهما للآخر، بمعنى الحكم عليه أنه كافر كفراً أكبر يخرج من ملة الإسلام!! فهذا ما لا ينشرح له صدر مسلم ولا يقبله عقل عالم؛ بل أرى أن الخلاف في هذه القضية لا يحتمل تأثيماً ولا تفسيقاً ولا تبديعاً، إنما أقصى ما فيه: أن يكون خلافاً بين مصيب ومخطئ، أو مصيب وأصوب منه[٢].

وكما عاب الشيخ موقف السلفيين ألقى كذلك باللوم على المتطاولين من المؤولين فقال: وإذا كنا نعيب على بعض السلفيين غلوهم في تكفير بعض المسلمين من المؤولين وغيرهم، أو تفسيقهم وتأثيمهم، فإنا نعيب كذلك على بعض مخالفيهم الغلو في اتهام هؤلاء السلفيين - بل أئمتهم وشيوخهم - بالضلال والمروق، وتقويلهم ما لم يقولوه في دين الله، ورميهم بالتجسيم والتشبيه وهم يبرأون منهما في كل ما كتبوه. حتى قالوا عن الإمام الرباني، علاّمة الأمة، شيخ الإسلام ابن تيمية ما لا يجوز ولا يقبل أن يقال: بحال من الأحوال[٣].

٦ - ملكة خطابية رائعة:

تعد هذه من أبرز أدوات الشيخ ومؤهلاته، فإن الشيخ جمع بين الأسلوب الكتابي، والأسلوب الخطابي، والدعاة والعلماء في أمر الكتابة والخطابة ليسوا سواء، لكنهم على أصناف فمنهم:

---

(١) انظر: فصول في العقيدة بين السلف والخلف ص ١٦٠ وما بعدها بتصرف.
(٢) انظر: المرجع السابق ص ١٧٢ وما بعدها بتصرف.
(٣) انظر: المرجع السابق ص ١٧٦ وما بعدها بتصرف.

١ – من تسمعه ولا تقرأ له .

٢ – من تقرأ له ولا تسمعه .

٣ – من تسمعه وتقرأ له .

والشيخ القرضاوي من هذا الصنف الأخير ، فهو يُسمع له ويقرأ له ، وإذا سمعه السامع كاد ألا يفرّق بين أسلوب كتابته ، وإذا قرأ له القارئ يكاد ألا يفرّق بين أسلوب خطابه ، فهو يجمع بين الحسنيين: كتابة وخطابة ، ولقد ساعد الشيخ على ذلك عدة أمور :

١ – لغة جميلة .

٢ – عرض رائع .

٣ – لهجة صادقة .

٤ – لسان فصيح .

٥ – صوت قوي .

٦ – أسلوب رصين .

٧ – ذاكرة قوية [١].

٧ – ثقافة واسعة :

حين نتحدث عن الثقافة الواسعة لدى القرضاوي ، فإننا نتحدث عن صاحب كتاب: « ثقافة الداعية »، ويبدو أن الشيخ في إعداده لهذا الكتاب(٢) إنما كان يتحدث عن ثقافته هو، لذا يقول الشيخ : الدعوة عطاء وإنفاق ، ومن لم يكن عنده علم ولا ثقافة كيف يعطي غيره؟! وفاقد الشيء لا يعطيه ، ومن لم يملك النصاب كيف يُزكي[٣].

---

(١) يراجع من هذا الكتاب فصل « الوسائل والأساليب في منهج القرضاوي الدعوي» مبحث «الخطب».

(٢) شارك الشيخ بهذا البحث في المؤتمر الإسلامي الأول لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٣٩٧ هـ، وأخرجه الشيخ كتاباً فيما بعد وأصبح من أشهر كتبه .

(٣) انظر: ثقافة الداعية القرضاوي ص ٥ .

والداعية في نظر الشيخ : ليس مجرد الخطيب الذي يؤثر في الناس بوعظه وصوته وقصصه التي يثير بها العواطف .. هذا قد يوجد ، وإنما أريد الداعية الفقيه ، الداعية الذي يعرف حقيقة الإسلام ، ويعرف ما يجري في هذه الحياة ، ولا يعيش منعزلاً عن عصره وما يدور فيه من تيارات وما يعتريه من مشكلات .. نحن نريد الداعية الذي يفقه أحكام الله الشرعية وسنن الله الكونية .. نحن الآن في حاجة إلى الداعية الفقيه الذي يعلم الناس الإسلام حق التعليم .. الداعية الذي لا يشغل الناس بالسنة وهم يضيعون الفرض ، ويشغلهم بأمر مختلف فيه وهم يرتكبون الكبائر !![1]

وللشيخ في أنواع الثقافات قدم راسخ ، وتبريز واضح ، وخصوصاً الثقافة الإسلامية بشتّى جوانبها .

ولمعرفة الثقافة لدى الشيخ سنتحدث على النحو التالي :

أولاً : الثقافة الإسلامية .

ثانياً : الثقافة التاريخية .

ثالثاً : الثقافة الأدبية واللغوية .

رابعاً : الثقافةالإنسانية .

خامساً : الثقافة العلمية .

سادساً : الثقافة الواقعية .

* * *

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ص٤٨ ج ١ .

أولاً : الثقافة الإسلامية

١ ـ القرآن وعلومه :

الناظر في مكتبة الشيخ يطالع أول ما يطالعه في كتبه :

١ – كيف نتعامل مع القرآن[١] .

٢ – الصبر في القرآن [٢].

٣ – العقل والعلم في القرآن [٣].

٤ – المرجعية العليا في الإسلام [٤].

٥ – تفسير سورة الرعد[٥].

هذا فضلاً عن الفتاوى المتناثرة للشيخ، والكلمات المبثوثة في كتبه هنا وهناك .

والسامع للشيخ في دروسه الرمضانية التي يلقيها في جامع الإمام «أحمد بن حنبل» بالدوحة في كل عام منذ قرابة ثلاثين عاماً، يلحظ دقة الشيخ في اختيار الآيات القرآنية التي يفسرها، مما يتماشى مع حاجة الناس .

وقد ترى الشيخ يوماً يفسر آية ، ويوماً مجموعة من الآيات، ويوماً سورة كاملة ، ويوماً جزءاً بكامله، وهو في هذا كله تظهر عليه سمات المفسر ، فتسمع

---

(١) وهو كتاب شقيق لكتاب الشيخ «كيف نتعامل مع السنة؟» وللشيخ الغزالي كتاب بهذا الاسم وهو عبارة عن محاورات وأسئلة طرحها عليه الأستاذ عمر عبيد حسنة . وقد وضع الشيخ القرضاوي في كتابه مجموعة من القواعد والأصول في كيفية التعامل مع القرآن حفظاً وتلاوة واستماعاً وفهماً وتفسيراً واتباعاً وعملاً ودعوة ؛ كما بين الشيخ مقاصد القرآن وخصائصه .

(٢) وهو تفسير موضوعي جمع الشيخ فيه ما يتعلق بالصبر من الكلمات والآيات في القرآن .

(٣) وهو تفسير موضوعي جمع الشيخ فيه ما يتعلق بالعقل والعلم من الكلمات والآيات في القرآن .

(٤) وهو شرح للأصل الثاني من الأصول العشرين للإمام البنا وضح فيه الشيخ كيفية التعامل مع القرآن والسنة .

(٥) وهو تفسير تحليلي وليس للشيخ غيره ، وهو عبارة عن دروس جمعها وحققها الأستاذ محمود أحمد عوض .

منه لطيفة ، أو إشارة ، أو معنى لغوياً ، أو حكماً فقهياً ، أو صورة بيانية ، ولن تعدم منه نكتة جميلة ، أو طرفة مضحكة .

وهذا ليس بغريب على ابن الكتّاب كما سمّى نفسه في مذكراته.

ولقد أحسن الأخ محمود أحمد عوض حين قال في مقدمة تحقيقه لتفسير سورة الرعد : ومن خلال المعايشة تبين لي منهج الرجل الثابت في التعامل مع القرآن الكريم ، الذي يقوم على النظرة المعتدلة والشاملة ، ويبتعد عن الإفراط والتفريط ، ويربط الآيات بعضها ببعض ، ويتتبع اللفظة في القرآن فيذكر معانيها[1] .

وعلاقة الشيخ بالقرآن بدأت مبكراً منذ نعومة أظفاره ، يوم أن جلس بين شيخه في الكتاب ، ولا تزال علاقة الشيخ بالقرآن مستمرة وتستمر بإذن الله ، حدثني الأستاذ الدكتور علي القرة داغي وهو من تلامذة الشيخ و مرافقيه في كثير من أسفاره ، يقول : إن الشيخ لا يفارقه مصحفه أبداً ، وخصوصاً في أسفاره الطويلة كما في السفر إلى أمريكا ، وإن الشيخ يختلي بنفسه في السفر مردداً كلمات الله بصوت عذب ندي .

والشيخ في اختياره لأدلته من القرآن لا يتعب ولا يمل ، فقرآنه في صدره ، وآياته في قلبه ، وكلماته في دمه ، أشبه ما تكون بثمار دوانٍ، وقطوف دانية، يتناول الشيخ منها ما شاء، وقتما شاء .

فالقرآن ذخيرة من ذخائره ، ومعين يستمد منه ، وضياء يقتبس منه ما يضيء له طريق دعوته ، ويفتح به صدور مدعويه، وهو في هذا كله إنما يحاول جاهداً أن يستخرج من لآلئه ، وينبش عن كنوزه، ليزكي بها النفوس، ويقوّم بها الأفكار، ويصحح بها الاعتقاد. يقول الشيخ في مقدمة كتابه العقل والعلم في القرآن : القرآن الكريم هو مصدري الأول، ومعتمدي الأساسي، أستمد منه الهداية والتسديد ، في كل محاضراتي وخطبي ، وعامة مؤلفاتي وكتبي . ساعدني على ذلك حفظي المبكر للقرآن ، وأنا دون العاشرة ، واستحضاري لآياته

---

(١) انظر : تفسير سورة الرعد ص٩ .

بيسر ، كلما احتجت إلى الاستشهاد بها في مختلف المعاني وشتى الموضوعات[1].

والشيخ ينظر إلى واقع المسلمين وتعاملهم بالقرآن فيرى سوء تعامل مع القرآن ، فيضعون القرآن في غير موضعه ، أو يستعملونه في غير مكانه ، أو يجرونه في غير ما أنزل له ، كما في استعمالهم له كرقى وتمائم ، أو بركة في البيوت ، أو تلاوة على الأموات، أو حتى مداواة للمرضى فقط دون العمل به .

يقول الشيخ : ما رأيت غائباً أشبه بحاضر ، ومنسياً أشبه بمحتفىً به ، من القرآن في حياة المسلمين .

إن عشرات الألوف بل مئات الألوف ، يحفظونه عن ظهر قلب ، ومئات الملايين يتلونه أو يستمعون إليه صباحاً ومساء ، آناء الليل وأطراف النهار ، وملايين آخرين يزينون بآياته الجدران ، أو يتبركون بحمل المصحف في جيوبهم أو في سياراتهم ، أو بحمل آية من آياته في حلية تزدان بها صدورهم ، أو تميمة يستشفي بها عوامهم ، بل رأينا بعضهم يفتحون عيادات للاستشفاء بالقرآن ، والعلاج بالقرآن !

نرى المسلمين تفتتح إذاعاتهم وتلفازاتهم بالقرآن ، وتختم بالقرآن ، بل هناك إذاعات كاملة مخصصة كلها للقرآن ، ترتله وتجوده وتفسره .

ومع هذا كله ، نرى المسلمين مقصرين في حق القرآن أبلغ تقصير . فالقرآن لم يصبح هو الموجه الأول لعقول المسلمين ، ولا المؤثر الأول في قلوب المسلمين ، ولا المحرك الأول لسلوك المسلمين ، ولا المغير الأول لما بأنفس المسلمين[2].

وقد عبّر الشيخ عن هذا شعراً فقال :

هذا الكتاب غدا في الشرق واأسفا شمساً تضيء ولكن بين عميان
يحاط بالطفل حرزاً من أذىً وردىً وفيه حرزُ الورى من كل خسران

---

(١) انظر : العقل والعلم في القرآن ص ٧ .
(٢) انظر : كيف نتعامل مع القرآن ص ٤٠٥ .

يتلى على ميت في جوف مقبـرة وليـــس يحكم في حـــي بديـوان
فكيف نرقى ومعراجُ الرقـيّ لنـا أمسى يجر عليه ذيل نسيـان ؟[1]

ويندد الشيخ بهذا النوع فيقول : فالقرآن لم ينزله الله تعالى لمجرد التبرك بتلاوته ، ولا لتزيين الجدران بآياته ، ولا لقراءته على الأموات ابتغاء أن يرحمهم ربهم .

إنما أنزل الله القرآن ليضبط بهدايته مسيرة الحياة ، ويحكمها بما أنزل الله من الهدى ودين الحق ، ويهدي بنوره البشرية للتي هي أقوم ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور .

فالقرآن لم ينزل ليتلى على الأموات بل ليحكم الأحياء ، لم ينزله لتزدان به الجدران، بل ليزدان به الإنسان [2].

ولعل هذا أحد الأسباب التي دعت الشيخ إلى أن يكتب كتابه القيم « كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟»، وعند مطالعة هذا الكتاب نرى كيف يريد القرضاوي أن يتعامل المسلم مع القرآن :

١ – حفظاً وتلاوة واستماعاً .
٢ – فهماً وتفسيراً
٣ – اتباعاً وعملاً ودعوة .

وخلاصة فهم القرضاوي للقرآن أنه :

أولا : من حيث خصائصه :

١ – كتاب إلهي .
٢ – كتاب محفوظ .
٣ – كتاب معجز .
٤ – كتاب مبين ميسر .
٥ – كتاب الدين كله .

---

(١) انظر : نفحات ولفحات ص ٣٩ .
(٢) انظر : المرجعية العليا ص ٢٣ .

٦ – كتاب الزمن كله .

٧ – كتاب الإنسانية كلها [١] .

ثانياً من حيث مقاصده :

١ – يصحح العقائد والتصورات .

٢ – يقرر كرامة الإنسان وحقوقه .

٣ – يرسخ عبادة الله وتقواه .

٤ – يزكي النفس البشرية .

٥ – يكون الأسرة وينصف المرأة .

٦ – يبني الأمة الشهيدة على البشرية .

٧ – يدعو إلى عالم إنساني متعاون [٢] .

ثالثاً من حيث تفسيره :

فقد وضع الشيخ معالم وضوابط ، وحذر من بعض المزالق والمحاذير .

أما المعالم والضوابط فهي :

١ – الجمع بين الرواية والدراية .

٢ – تفسير القرآن بالقرآن .

٣ – تفسير القرآن بالسنة .

٤ – الانتفاع بتفسير الصحابة والتابعين .

٥ – الأخذ بمطلق اللغة .

٦ – مراعاة السياق .

٧ – ملاحظة أسباب النزول .

٨ – اعتبار القرآن أصلاً يرجع إليه [٣] .

---

(١) انظر : كيف نتعامل مع القرآن ص ١٧ ـ ٧٠ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٧١ ـ ١٢٨ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٢١٤ ـ ٢٦٤ .

obeikandl.com

وأما المزالق والمحاذير التي حذر منها فهي :

١ – اتباع المتشابهات وترك المحكمات .

٢ – سوء التأويل .

٣ – وضع النص في غير موضعه .

٤ – دعوى النسخ بلا برهان .

٥ – الجهل بالسنن والآثار .

٦ – الثقة بالإسرائيليات .

٧ – الشرود عن إجماع الأئمة .

٨ – ضعف التكوين العقلي [١].

القرآن في دعاء الشيخ وشعره :

تأثر الشيخ القرضاوي بالقرآن تأثراً واضحاً ، ولك أن تقول إن القرضاوي عاش بالقرآن وللقرآن ومع القرآن ـ أحسبه كذلك ولا أزكيه على الله تعالى ـ وقد ظهر هذا التأثر كما هو معروف في كتابات الشيخ ومحاضراته ، و كما في خطبه وكلماته ، وسألقي الضوء هنا على أمرين فقط :

الأول : القرآن في دعاء القرضاوي .

الثاني : القرآن في شعر القرضاوي .

أولاً : القرآن في دعاء القرضاوي :

تشهد قطر كلها بأن الشيخ من أول من سنّ للناس فيها سنة ختم القرآن في صلاة التراويح ، وكان الشيخ محيي هذه السنة في قطر ، ولما كان الشيخ يطيل القراءة ، كان لازماً عليه أن يطيل دعاء القنوت في صلاة الوتر، تماشياً مع إطالة القراءة ، بيد أن الشيخ كان أكثر ما يطيل في ليلة السابع والعشرين[٢]، وليلة

---

(١) انظر : كيف نتعامل مع القرآن ص ٢٦٥ ـ ٣٦٨ .

(٢) يعتقد كثير من الناس أن ليلة السابع والعشرين من رمضان هي ليلة القدر، وعلى هذا درج كثير من الأئمة والدعاة، ومنهم الشيخ القرضاوي الذي درج على تخصيص هذه الليلة بطول القيام وكثرة الدعاء، =

ختم القرآن[1] ، والمتأمل لدعاء الشيخ في هاتين الليلتين وغيرهما يرى كيف يقتبس الشيخ دعائه من القرآن ، ويلحظ السامع الشيخ في دعائه كيف يرتب دعاءه وينسقه وينظمه ؛ فهو أولاً يثني على الله بما هو أهله مما ورد في القرآن والسنة ، ثم يدعو ربه بدعاء أنبيائه الوارد على ألسنتهم في القرآن ، ويكاد الشيخ لا يترك دعاء واحد منهم بداية بآدم عليه السلام وانتهاء بمحمد ﷺ ومروراً بنوح وهود وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وغيرهم عليهم الصلاة والسلام[2].

ثم يبدأ الشيخ بعد ذلك بالاقتباس من القرآن والسنة ، واللافت للنظر : هو اقتباس الشيخ من القرآن وتأوله لآياته ، واقرأ معي هذه الأدعية لترى كيف تأثر الشيخ بالقرآن الكريم :

اللهم يا من أهلكت ثمود بالطاغية ، وأهلكت عاداً بريح صرصر عاتية ، وأخذت فرعون وجنده أخذة رابية ، أهلك الطغمة اليهودية المتجبرة الباغية ، ولا تبق لهم في أرضنا منّ باقية ، اللهم إنهم طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد. اللهم فصب عليهم سوط عذاب، وكن لهم بالمرصاد، ودمرهم كما دمرت إرم ذات العماد .

أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد .

أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس .

سبحان ربي الأعلى ، الذي خلق فسوى ، الذي قدر فهدى ، والذي أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى .

= قال القرطبي : وقد اختلف العلماء في ذلك والذي عليه المعظم أنها ليلة سبع وعشرين . وهناك آراء أخرى منها أنها ليلة الحادي والعشرين، أو الثالث والعشرين ، أو أنها تتنقل في الليالي الفردية من العشر الأواخر . للمزيد في ذلك انظر : الجامع لأحكام القرآن القرطبي ط دار الكتب ج٢٠ ص ١٣٣ ١٣٨٧ هـ .

(١) يطيل الشيخ في دعائه وقد يصل طول دعائه إلى ساعة ؛ ينقص أو يزيد بقليل.

(٢) انظر : ابتهالات ودعوات ص ١٥ وما بعدها .

سبحان الله الأحد، سبحان الله الصمد، سبحان الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد .

اللهم فالق الحب والنوى ، مخرج الحي من الميت ، ومخرج الميت من الحي، فالق الإصباح ، وجاعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسباناً، يا من جعل لنا النجوم لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر ، يا من أنشأنا من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع ، يا بديع السماوات والأرض .

اللهم فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس دونك شيء، أغننا من الفقر، وأوف عنا الدين .

يا من خلق الأرض والسموات العلا، يا رحماناً على العرش استوى، يا من له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما ، وما تحت الثرى ، يا من يعلم السر وأخفى ، يا من له الأسماء الحسنى ، يا من مع عباده يسمع ويرى ، يا من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، يا من لا يضل ولا ينسى، يا من وعد من اتبع هداه بأن لا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكره فإن له معيشة ضنكا، ويحشره يوم القيامة أعمى.

يا من خشعت الأصوات لرحمانيته ، وعنت الوجوة لقيوميته ، وشهدت الفطر بوحدانيته، وأقرت العقول بربوبيته ، ودلت الدلائل على ألوهيته ، وخضع كل شيء لعظمته، وذل كل شيء لعزته ، وسكن كل شيء لهيبته ، وقام كل شيء بقدرته ، ودانت الجبابرة لسطوته ، وأبدع كل شيء بحكمته ، ووسع كل شيء برحمته ، يا من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، يا من خضعت الكائنات لقهره ، ومن قامت السموات والأرض بأمره .

اللهم أنت الذي خلقتني فأنت تهدين ، وأنت الذي تطعمني وتسقين، وإذامرضت فأنت تشفين ، و أنت الذي تميتني ثم تحيين، وأنت الذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ، رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ، واجعل

لي لسان صدق في الآخرين ، واجعلني من ورثة جنة النعيم ، واغفر لآبائنا وأمهاتنا من المسلمين[١].

ثانياً : القرآن في شعر القرضاوي :

من المعروف لدى المشتغلين بالشعر أن كثيراً من الشعراء بعد نزول القرآن اقتبسوا من القرآن، وأخذوا من ألفاظه ومعانيه ، واستلهموا من كلماته ومبانيه ، ومَنْ مِنَ المشتغلين بالشعر ينسى قول حسان عند حديثه عن غزوة الخندق وهو يقول:

وكفى الإله المؤمنين قتالهم وأثابهم في الأجر خير ثواب [٢]

ومن كذلك ينسى قول ابن رواحة:

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء حق وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة غلاظ ملائكة الإله مسومينا [٣]

وعلى مر التاريخ الإسلامي أخذ الشعراء يقتبسون من القرآن ، ومن هؤلاء الشيخ القرضاوي وهذا يظهر جلياً في كثير من شعره بل تكاد جل قصائده إن لم تكن كلها لا تخلو من اقتباس من القرآن وعلى سبيل المثال :

١ ـ في قصيدته الأولى من ديوانه الأول « يا مرشداً قاد بالإسلام إخواناً» يقول :

وعاش يوسف دهراً يخدم امرأة عبداً، وكان له في السجن ما كان
فإن يكن نسل يعقوب كذا فعلوا [٤] **فلا تلم نسل فرعون وهامانا**

---

(١) انظر : ابتهالات ودعوات ص٣٣ وما بعدها .

(٢) انظر : ديوان حسان بن ثابت ص ٤٠ وما بعدها ط دار الكتب العلمية بيروت الأولى ١٩٨٦م.

(٣) انظر : الاستيعاب ابن عبد البر ج ٣ ص ٩٠١ ط دار الجيل بيروت ١٤١٢ هـ .

(٤) أخوة يوسف تابوا من فعلتهم، واستغفر لهم أخوهم كما وعدهم أبوهم يعقوب بالاستغفار، فليس لنا أن نعيرهم بفعلتهم .

ودع أذاهم وقل: موتوا بغيظكم فالغرب مولاكم والله مولانا

٢ ـ وفي قصيدته الثالثة «في ذكرى المولد» يقول:

ما زال فينا ألوف من «أبي لهب» يؤذون أهل الهدى بغياً ونكراناً
يا رب نصرك فالطاغوت أشعلها حرباً على الدين إلحاداً وكفراناً
يا قوم قد أيد التاريخ حجتنا «وحصحص الحق» للمستبصر الآنا[١]

٣ ـ وفي «ملحمة الابتلاء» يرى القارئ لشعر القرضاوي أثر القرآن في ثقافته واضحاً جليا ومن ذلك قوله فيها:

نونية والنون تحلو في فمي أبداً فكدت يقال لي «ذو النون»[٢]

وقوله:

كفى بربك للخليقة محصياً في لوحه وكتابه المكنون[٣]

وقوله:

وعزلت عن بصر الحياة وسمعها وقذفت في قفص العذاب الهون[٤]

وقوله عن السجن الحربي:

هو صورة صغرى استعيرت من لظى في ضيقها وعذابها الملعون

وقوله عن أحد شهداء السجن الحربي:

قولوا لأمي لا تنوحي واصبري أنا عند خالقي الذي يهديني
أنا إنا حرمت وداهكم لجنازتي فملائك الرحمن لم يدعوني
إن لم يصل علي في الأرض امرؤ حسبي صلاتهمو بعليين
أنا في الفردوس أقفز شادياً جذلان كالعصفور بين صون

---

(١) انظر: نفحات ولفحات ص ٤٤.
(٢، ٣) انظر: المرجع السابق ص ٥٤.
(٤) انظر: المرجع السابق ص ٥٥.

أنا في جوار المصطفى وصحابه أحضى بأجر ليس بالممنون
ولدانها في خدمتي وثمارها في قبضتي ونعيمها يدعوني
وإذا حرمت العرس في الدنيا فلي ما شئت فيها من حسان عين[1]

بل إن خاتمة القصيدة كلها قبسات قرآنية يقول فيها الشيخ :

يا من أجبت دعاء نوح: «فانتصر» وحملته في «فلكه المشحون»
يا من أحال النار خول خليله «روحاً وريحاناً» بقولك «كوني»
يا من أمرت الحوت يلفظ يونساً وسترته بشجيرة اليقطين
يا رب إنا مثله في كربة فارحم عباداً كلهم «ذو النون»[2]

ولعل قصيدتيّ «ابتهال»[3] و«مناجاة»[4] من الديوان الأول من أكثر قصائد الشيخ اقتباساً من ألفاظ القرآن ومعانيه.

كما أن قصائد «الديوان الثاني» كذلك لا تخلو من اقتباس واضح، فانظر على سبيل المثال : قصيدة «هجمة الجند»[5].

وقصيدة : أم زائرة[6].

وقصيدة : إليك يا ابن الإسلام[7].

وقصيدة : إليك يا ابنة الإسلام[8] . وغيرها كثير .

٢ ـ السنة وعلومها :

تعد السنة النبوية من مؤهلات كل داعية إلى الله تعالى ، وهي تمثل لدى الشيخ القرضاوي – ولدى كل داعية – المصدر الثاني في الدعوة إلى الله، ولا يتصور أن يكون المرء داعياً إلى الله تعالى، إلا إذا ملأ جعبته من السنة النبوية علماً وعملاً .

(١) انظر : نفحات ولفحات ص ٥٩ .
(٢) انظر : المرجع السابق ص ٦٩ .
(٣) انظر : المرجع السابق ص ٨٥ .
(٤) انظر : المرجع السابق ص ٨٩ .
(٥) انظر : المسلمون قادمون ص ٩ .
(٦) انظر : المرجع السابق ص ١٧ .
(٧) انظر : المرجع السابق ص ٣١ .
(٨) انظر : المرجع السابق ص ٣٩ .

والشيخ القرضاوي حفظه الله ولج علوم السنة وعلوم الحديث بقوة ، وقد رسخ الشيخ أقدامه في هذا المضمار ، وقد أخرج الشيخ من كتبه في هذا المضمار:

١ – المنتقى من الترغيب والترهيب [١].

٢ – المدخل لدراسة السنة النبوية [٢].

٣ – كيف نتعامل مع السنة النبوية [٣].

٤ – السنة مصدراً للمعرفة والحضارة [٤].

٥ – نحو موسوعة للحديث النبوي [٥].

٦ – قطوف دانية من الكتاب والسنة[٦] .

---

(١) ألف الشيخ هذا الكتاب وهو اختصار لكتاب الترغيب والترهيب بحذف الضعيف والمكرر منه ، واقتصر على الصحيح والحسن ، والتعليق عليه بما لا بد منه في أضيق نطاق ، وكان السبب في ذلك هو ولوع بعض الخطباء والوعاظ بالأحاديث المنكرة والواهية بل والضعيفة أحياناً ، ويكون الشيخ بعمله في هذا الكتاب الذي يقتبس منه الكثيرون يكون قد أنقذ الكثيرين من التعلق بالضعيف من الحديث ، انظر : المنتقى ص ٤٧ .

(٢) ألفه الشيخ استجابة لرغبة قسم الحديث والتفسير بكلية الشريعة جامعة قطر وفق البرامج المطورة للكلية المذكورة ، انظر : ص ٣ من الكتاب .

(٣) ألف الشيخ هذا الكتاب استجابة لكل من المعهد العالي للفكر الإسلامي في واشنطن والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن ، انظر : ص ١٩ من الكتاب .

(٤) ألف الشيخ هذا الكتاب استجابة للمعهد العالي للفكر الإسلامي في واشنطن ، انظر : ص ٧ من الكتاب.

(٥) رسالة موجزة للشيخ كتبها حول مشروع يوضح فيه الشيخ منهجاً مفترضاً لإعداد موسوعة في السنة وما يجب أن تتضمنه ، والطريقة التي ينبغي أن تتم بها والخطوات اللازمة لذلك ، وقد نشرت هذه الرسالة في مجلة مركز بحوث السنة ، ونشرتها مجلة المسلم المعاصر وغيرها من المجلات ، ثم نشرتها مكتبة وهبة كتاباً مستقلاً . انظر : مقدمة الكتاب ص ٤ ، ٥ بتصرف .

(٦) هذا الكتاب أو هذه الرسالة تعد أول مؤلف نثري للشيخ نشر له في عالم التصنيف ، وكان الشيخ وقتها طالباً في كلية أصول الدين ، ولم يكن له قبلها سوى مسرحيته الشعرية « يوسف الصديق»، وكان تأليف الشيخ لهذه الرسالة استجابة لإخوان المحلة الكبرى، فجمع هذه الأحاديث والآيات وبوبها وركبها ، وكان الشيخ قد أعد لها توسيعاً وتحسيناً وأعد لذلك مسودة لكنها ضاعت مع ما ضاع من تراث الإخوان . انظر : مقدمة الكتاب ص ٣ وما بعدها.

٧ – الرسول والعلم[١].

٨ – المرجعية العليا في الإسلام [٢].

٩ – في رحاب السنة [٣].

وترى الشيخ مدافعاً قوياً عن السنة النبوية، وهو حين يدافع إنما يضرب في ثلاث جبهات :

١ – جبهة التحريف . ٢ – جبهة الانتحال .

٣ – جبهة التأويل .

فيحذر من تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وهو في هذا يسلك طريق العدول من أهل العلم الذين عناهم الرسول ﷺ بقوله : يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغاليين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين [٤].

يقول الشيخ : فهناك التحريف الذي يأتي عن طريق الغلو والتنطع ، والتنكب عن الوسطية التي تميز بها هذا الدين ، وعن السماحة التي وصفت بها هذه الحنيفية ، وعن اليسر الذي اتسمت به التكاليف في هذه الشريعة .

وهناك الانتحال الذي يحاول به أهل الباطل أن يدخلوا على هذا المنهج النبوي ما ليس منه ، وأن يلصقوا به من المحدثات والمبتدعات ما تأباه طبيعته ، وترفضه عقيدته وشريعته ، وتنفر منه أصوله وفروعه .

---

(١) هذا الكتاب : قام الشيخ فيه بجمع الأحاديث المقبولة المتناثرة من مختلف المصادر، وبخاصة الأصلية منها، ودراستها دراسة موضوعية، لبيان موقف الرسول ﷺ في السنة والسيرة عن العلم بمفهومه العام، أو بمفهومه الحديث. انظر : مقدمة الكتاب ص٨ .

(٢) وهو شرح للأصل الثاني من الأصول العشرين للإمام البنا وضح فيه الشيخ كيفية التعامل مع القرآن والسنة .

(٣) هذا الكتاب : مجموعة من الأحاديث قام الشيخ بشرحها وأذاعتها إذاعة قطر عند إنشائها في ستينيات القرن الماضي وتم تفريغها، وهي تحت الطبع.

(٤) الحديث ذكره ابن القيم في مفتاح دار السعادة وقواه لتعدد طرقه ، وكذلك العلامة ابن الوزير ونقل تصحيح أحمد له، وكذلك ابن عبد البر، ورجح العقيلي إسناده . انظر : كيف نتعامل مع السنة ص ٢٨ .

وهناك سوء التأويل الذي به تشوّه حقيقة الإسلام ، ويحرف فيه الكلم عن مواضعه، وتنتقص فيه أطراف الإسلام ، فيخرج من أحكامه وتعاليمه ما هو من صلبه ، كما حاول أهل الباطل أن يدخلوا فيه ما ليس منه ، أو يؤخروا ما حقه أن يقدم ، أو يقدموا ما حقه أن يؤخر (١).

وقد وضع الشيخ عدداً من الضوابط والمعالم التي ينبغي على كل داعية أن يكون مدركاً لها كل الإدراك ، حتى لا يقع فيما حذر منه النبي ﷺ ، ونبه عليه العدول من أهل العلم ، وهذه المعالم والضوابط هي :

١ – فهم السنة في ضوء القرآن .

٢ – جمع الأحاديث الواردة في الموضع الواحد .

٣ – الجمع أو الترجيح بين مختلف الحديث .

٤ – فهم الأحاديث في ضوء أسبابها وملابستها ومقاصدها .

٥ – التمييز بين الوسيلة المتغيرة والهدف الثابت للحديث .

٦ – التفريق بين الحقيقة والمجاز في فهم الحديث .

٧ – التفريق بين الغيب والشهادة .

٨ – التأكد من مدلولات ألفاظ الحديث (٢).

والذي يقرأ ما كتبه الشيخ في كتبه التي ذكرناها، وغيرها، يرى اضطلاع الشيخ وتبحره في علوم السنة متناً وسنداً ، رواية ودراية ، وهو في هذا قد أتعب من جاء بعده بل ومن عاصره ، ممن خالفه أو وافقه .

إن جُل الدعاة تراهم بين فريقين ، إما منشغل بالدعوة فتأخذ أكبر همه وأكثر شغله، وإما منشغلٌ بطلب العلم فيأخذ أكبر همه ومبلغ علمه ، ثم إن من الذين ينشغلون بالعلم فمنهم من ينشغل به دراية ومنهم من ينشغل به رواية ، وقلَّ من يجمع بينهما ، وشيخنا حفظه الله ممن جمع بين الاثنين معاً ، ولعل هذه مزية تميز بها الشيخ القرضاوي عن شيخه الغزالي رحمه الله .

---

(١) انظر : كيف نتعامل مع السنة ص ٢٨ – ٣٠ بتصرف .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٩٣ - ١٨٢ ، والمدخل لدراسة السنة ص ١١٧ - ٢٠٥ .

ومن المعلوم أن الشيخ لم ترسخ قدمه في علم الحديث رواية إلا بعد أن منّ الله عليه بكتابة كتابه القيم « فقه الزكاة » ، وقد كان الشيخ قبل هذا الكتاب مقلداً لغيره من أهل الحديث في القديم أو الحديث ، و كان مقلداً لأهل الفقه قديماً في اعتمادهم على أهل الحديث، ولعل هذا بدا في كتابه الأول « الحلال والحرام »، فالشيخ كان فيه مقلداً أكثر منه مجتهداً خصوصاً في الحكم على الحديث من حيث القبول أو الرد والصحة أو القبول ، وهذا ما يؤكده الشيخ فيقول : هناك أحاديث اعتمدت فيها على تصحيح أو تحسين المتقدمين من أئمة الحديث فقهاء السنة ، وأعترف أني لم أناقشهم فيما صنعوا، بل كنت مقلداً لهم، ناقلاً عنهم ، ولا غرابة أن يأخذ رجل الفقه عن رجل الحديث[1].

ويعلق الشيخ على قبوله لحديث « من حبس العنب أيام القطاف ، حيث يبيعه من يهودي أو نصراني ، أو ممن يتخذه خمراً ، فقد تقحم النار على بصيرة »[2] بأنه اعتمد على تحسين الحافظ ابن حجر ، وسكوت الصنعاني على تحسين الحافظ ، ثم يقول : هذا ما غرّني بالحديث المذكور ، وجعلني أقبله تقليداً كما قلت ، إذ كنت في مرحلة التقليد المطلق في الحديث ، ولم أبدأ البحث في أمر الحديث ، والخروج جزئياً من إسار التقليد فيه ، إلا عندما بدأت أكتب في فقه الزكاة [3].

وقد أظهر الشيخ حقا براعته في التخريج وقدرته في هذا الفن ، وراجع إن شئت مثلاً تخريجه لحديث « ليس في المال حق سوى الزكاة »[4].

وهذه القدرة البارعة جعلت الشيخ يقف مع عدد من الأحاديث وقفة ربما يصفه البعض فيها بالجرأة ، وذلك حين يرد الشيخ حديثاً صححه المحدثون وخصوصاً جهابذته في العصر الحديث أمثال أحمد شاكر والألباني وشعيب

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ١٠١ .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط عن عبد الله بن بريد عن أبيه. وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة رقم (١٢٦٩) .

(٣) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ١٠٢ .

(٤) رواه ابن ماجه . في كتاب الزكاة عن فاطمة بنت قيس (١٧٨٩) وذكره الألباني في ضعيف الجامع رقم (٤٩٠٩) . وانظر تعليق الشيخ القرضاوي على الحديث في كتابه : فقه الزكاة ج٢ ص ١٠٢٠ .

لأرناؤوط ، كما هو الحال من موقف الشيخ من حديث «بعثت بين يدي الساعة بالسيف ، حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي» حيث ضعف الشيخ هذا الحديث من جهة سنده ومتنه[1].

وكما فعل الشيخ مع هذا الحديث؛ فعل مع الحديث المشهور على ألسنة الناس ، وهو حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة[2].

٣ ـ الفقه وأصوله :

قليلون هم الدعاة الفقهاء ، أو الفقهاء الدعاة ، وقد منّ الله على الشيخ؛ فجمع بين الفقه والدعوة كما جمع بين الأدب والبيان ؛ وحين يذكر القرضاوي فلا شك أنك ذاكر «فقه الزكاة» وحين يطالع القارئ «فقه الزكاة» فلا شك أنه واقف على موسوعة فقهية تنوء بمثلها المجامع كما قال الأستاذ محمد المبارك .

والحق أن الشيخ في فقهه استطاع أن يمزج بين الفقه والدعوة ، فهو حين يتحدث في الفقه إنما يتحدث بلسان الداعية ، وحين يكتب في الدعوة فإنما يكتب بعقلية الفقيه ، ومن ثم فإنك ترى الشيخ يتبنى من القضايا الفقهية ما يخدم دعوته ، وينفع رسالته ، ويحبب الناس في الدين. وحين يرفض رأياً في قضية من القضايا الفقهية ، فإنه إنما يرفضها بعين الداعية الفقيه ، لأنها ربما لا تتفق مع عظمة الإسلام ، ومقاصد الشرع .

ولعل هذه النظرة التي تبناها الشيخ أدارت حوله معارك ساخنة ؛ مما جعل ناشئة من الناس تطاولوا على الشيخ متناسين قدره وشأنه .

والشيخ منذ نعومة أظفاره ، ومن يوم أن دخل الأزهر ، وعينه تتقلب على كتب الفقه يمنة ويسرة ، وعقله يتنقل بين أقوال الفقهاء في بطون الكتب ، حتى غدا بعد ذلك ذا قدرة فائقة على استنباط الأحكام من أدلتها ، وغدت سمة

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ١٠٦ وما بعدها .

(٢) انظر: تعليق الشيخ على سند هذا الحديث ومتنه في كتاب الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ص ٤٩ ـ ٥٥ .

الفقيه ملازمة للشيخ بعد أن أصبح ذا سجية وقدرة على إعطاء كل حادثة ما يليق بها من الأحكام ، مراعياً في ذلك حالة الناس وواقعهم الذي يحيون فيه.

ولعل أول كتاب للشيخ وهو « الحلال والحرام » ظهرت فيه براعة الشيخ الفقهية ، واستحق الشيخ أن ينضم بهذا الكتاب إلى قائمة الفقهاء من الكُتّاب والعلماء .

وحين يتحدث الشيخ عن أهمية الفقه كأداة من أدوات الداعية الناجح وعنصر من عناصر ثقافته يقول : ولا بد للداعية من قدر ثابت من الثقافة الفقهية، بحيث يعرف أهم الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والآداب ، وما لم يعرفه أو يستحضره يكون قادراً على مراجعة حكمه في مصادره الموثقة. وذلك مهم للداعية من عدة نواح ليستطيع أن يجيب السائلين عن الحلال والحرام وشؤون العبادة والأسرة ونحوها ، مما يكثر الناس السؤال عنه ويلجأون عادة إلى الدعاة يلتمسون منهم الفتوى في ذلك . فمن لم يكن متضلعاً من الفقه سكت أو تهرب ، وفي ذلك إضعاف لموقفه وتأثيره ، أو أفتى بغير علم ، وهذه هي الطامة [١].

والشيخ حفظه الله حين يكتب في الفقه فإنه لا ينظر إليه نظرة محدودة تحصره في فقه العبادات فقط ، أو ما يطلق عليه البعض بغير وجه حق فقه « دورات المياه » أو فقه « الحيض والنفاس » إنما الفقه عند الشيخ أشمل وأعم ؛ إنه « العلم الذي يضبط حياة المسلم والجماعة المسلمة ، والأمة المسلمة، والدولة المسلمة بأحكام الشرع ، سواء منها ما يختص بالعلاقة بينه وبين الله تعالى، أم ما يتصل بالعلاقة بين المرء ونفسه ، أم ما يختص بالعلاقة بينه وبين أسرته ، أم ما يتعلق بتنظيم المبادلات والعلاقات المدنية بين الناس »[٢].

ويحمل الشيخ على من يقصرون الفقه على أن يتعلق بالحياة الشخصية فقط، مهملين آراء الفقه في الأمور العظام ، واصفاً العصور التي يشيع فيها هذا

---

(١) انظر : ثقافة الداعية ص ٦٩ .

(٢) انظر : نحو فقه ميسر معاصر ص ١١ .

الأمر بأنها عصور التراجع والانحطاط والانحراف فيقول: وقد اعتاد المسلمون في عصور التراجع والانحطاط والانحراف - وإلى اليوم - أن يسألوا الفقه في مسائل الحيض والنفاس والطهارة والصلاة والرضاع والطلاق ونحوها ، مما يتعلق بالحياة الشخصية للمسلم ، ولا يسألوه في الأمور الكبيرة التي تتعلق بمصير الأمة وكيانها ورسالتها ، كما نرى ذلك في عصرنا .

لا يسألونه عن تسلط الحكام العملاء الخونة ، أو الحكام الجبابرة المستبدين على شعوبهم المقهورة !

لا يسألونه عن نهب المال العام ، والإثراء الحرام ، وتكوين الثروات الضخمة من دماء الكادحين وعرقهم !

لا يسألونه عن تزوير الانتخابات الذي أصبح ظاهرة مميزة لأوطاننا العربية والإسلامية ، فنحن - دون العالم - بلاد التسعات الأربع المعروفة (٩٩,٩٩ ٪) !

لا يسألونه عن الظلم الاجتماعي : ظلم الأغنياء للفقراء ، والأقوياء للضعفاء ، والرجال للنساء ، وأرباب العمل للعمال ، وأصحاب النفوذ للمستضعفين !

لا يسألونه عن التهاون في أرض الإسلام ، والتنازل عنها لمن اغتصبها بالقوة والاعتراف بأنه أصبح مالكها .

لا يسألونه عن السكوت على شعوب إسلامية تذبح وتباد على مرأى ومسمع من أمة الإسلام ، ولا تجد من يشد أزرها في محنتها ، ويعينها على عدوها .

ويوم سأل بعضهم الفقه الإسلامي في قضية حساسة هي : حكم المرتد في شريعة الله ، وأجاب الفقه بصراحة على لسان فقهائه ودعاته وقضاته ، قامت الدنيا ولم تقعد !!! [١]

كما أن الشيخ في ثقافته الفقهية لم يكن متعصباً لمذهب من المذاهب

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ١٢ .

أو رأي من الآراء ؛ بل كان الشيخ منفتحاً كل الانفتاح على آراء المذاهب ، آخذاً منها ما يناسب العصر ، ويليق بحاجة الناس ، ويقرر الشيخ هذا في كتبه فيقول: ولا أقصد بالمذاهب الفقهية هنا : مذاهب أهل السنة الأربعة ، أو حتى المذاهب الثمانية المدونة «الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي والظاهري والزيدي والجعفري والإباضي» فقط ، بل أقصد ما هو أعم من ذلك وأوسع مدى ، كمذاهب الأوزاعي والثوري والطبري ، التي كان لها أتباع يقلدونها ويتعبدون على أساسها ثم انقرضوا ، وسادت مذاهب غيرهم عليها [١].

وهذا هو منهج الشيخ في كتبه الفقهية في «الحلال والحرام» كما في «فقه الزكاة» وغيرهما ؛ بل إن الشيخ يؤكد التزامه بهذا المنهج فيقول: وهذا ما التزمت به في كتبي ، والحمد لله . ففي «فقه الزكاة» أخذت بمذهب أبي حنيفة في زكاة الزروع والثمار ، وإيجابها في كل ما أخرجت الأرض ، أخذاً بعموم الآية ﴿ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ ﴾ [البقرة ٢٦٧] . وعموم الحديث: « فيما سقت السماء العشر » [٢] . ولكني لم آخذ بمذهب أبي حنيفة في عدم اشتراط النصاب في ذلك . كما لم آخذ به في عدم إيجاب الزكاة على حلي المرأة .

وأخذت بمذهب الشافعي في مقدار ما يعطى الفقير المسكين من الزكاة بإعطائه «كفاية العمر »، لا مجرد «كفاية السنة» ما دام في حصيلة الزكاة متسع، وذلك لما يسنده من الحديث النبوي، ومن قول عمر: إذا أعطيتم فأغنوا[٣].

ولعل أهم ميزات الشيخ الفقهية هي ما أسماه الشيخ بـ«ضرورة الوصل بين الفقه والحديث» والذي دعا الشيخ إلى جعل هذا الأمر ضرورة أمور عدة أهمها:

---

(١) انظر : الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد ص ٣٣ .

(٢) رواه البخاري في الزكاة برقم (١٤٨٣) عن ابن عمر .

(٣) انظر : نحو فقه ميسر ص ٣١ ، ٣٢ .

١ – وجود كثرة كاثرة ممن ينشغلون بالفقه ، لا يتعمقون في معرفة الحديث ، فتروج لديهم الأحاديث الواهية وما لا أصل له .

٢ ـ وجود كثرة كاثرة ممن ينشغلون بالحديث لا يتعمقون في معرفة الفقه وأصوله، فلا يتذوقون أسراره ، ولا يفقهون مقاصده ، فيقفون عند الظواهر ولا ينفذون إلى المقاصد[١].

وهذا الذي شكا منه الشيخ وشكا منه سابقون من الفقهاء المحدثون أمثال : سفيان الثوري ، وابن عيينة ، وعبد الله بن سنان ، فيقولون : لو كان أحدنا قاضياً لضربنا بالجريد فقيهاً لا يتعلم الحديث ، ومحدثاً لا يتعلم الفقه[٢].

ويضرب الشيخ مثلاً ليؤكد ضرورة الوصل بين الفقه والحديث فيقول : ومن ذلك حديث « ثلاث جدهن جد ، وهزلهن جد : النكاح والطلاق والرجعة » فقد رواه أبو داود وسكت عليه ، والترمذي وقال : حسن غريب ، وابن ماجه ، كلهم من طريق عبد الرحمن بن أردل ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن ماهك ، عن أبي هريرة .

وبعد أن يتحدث الشيخ عن سند الحديث وما فيه من ضعف يقول :

فمثل هذا الحديث – الذي انفرد به مثل هذا الراوي – لا يجوز أن يعتمد عليه في حكم خطير كهذا ، يقرر قاعدة من القواعد ، وهي : اعتبار الهزل جداً في هذه الأمور المهمة المذكورة . وهي مخالفة لما قرره حديث « إنما الأعمال بالنيات » وأمثاله ، وما استنبطه الفقهاء من أن « الأمور بمقاصدها » وإلغاء الشارع – بنصوص ثابتة – آثار النسيان والخطأ والإكراه، لعدم وجود النية والاختيار لها .

ونقل المنذري في « مختصر السنن » عن الإمام أبي بكر المعافري يعني : ابن العربي أنه لم يصح في هذا الباب شيء .

ومن هنا ذهب من ذهب من الأئمة إلى ضرورة اعتبار النية في النكاح والطلاق وغيرها، ونسب ذلك الشوكاني إلى أحمد ومالك، وبه قال جماعة من

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٥٢ ، ٥٣ بتصرف .

(٢) انظر : نظم المتأثر من الحديث المؤثر الكتاني ص ٣ ط دار الكتب العلمية بيروت نقلاً عن نحو فقه ميسر معاصر ص ٥٣ .

الأئمة منهم : الصادق والباقر والناصر . واستدلوا بقوله تعالى ﴿ وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلَاقَ ﴾ [البقرة ٢٢٧] . فدلت على اعتبار العزم ، والهازل لا عزم منه [١].

وقد أسفرت ثقافة الشيخ الفقهية عن كتب رائعة أهمها :

١ – الحلال والحرام في الإسلام .
٢ – فتاوى معاصرة ٣ أجزاء ، ج٤ (تحت الطبع) .
٣ – الاجتهاد في الشريعة الإسلامية .
٤ – مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية .
٥ – عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية .
٦ – شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان .
٧ – من فقه الدولة في الإسلام .
٨– الفتوى بين الانضباط والتسيب .
٩ – الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد .
١٠– الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط .
١١– زواج المسيار حقيقته وحكمه .
١٢– الضوابط الشرعية لبناء المساجد .
١٣– فقه الأقليات المسلمة .
١٤– مئة سؤال عن الحج والعمرة والأضحية .
١٥– فقه الزكاة جزءان .
١٦– بيع المرابحة للآمر بالشراء .
١٧– فوائد البنوك هي الربا الحرام .
١٨– فقه الغناء والموسيقى في ضوء القرآن والسنة .
١٩– فقه الصيام .
٢٠– الضوابط الشرعية لبناء المساجد .
٢١– السنة والبدعة .
٢٢– فقه اللهو والترويح .
٢٣ – فقة المقاصد .

---

(١) انظر : نحو فقه ميسر معاصر ص ٥٣ – ٥٥ .

obeikandl.com

ثانياً : الثقافة الأدبية واللغوية

كان لنشأة القرضاوي الأولى أثر في رسوخ قدمه في اللغة والأدب ، وكانت شهرة القرضاوي الشاعر والأديب أسبق من شهرة القرضاوي الداعية والفقيه[١].

وكتب القرضاوي وكلماته تظهر فيها الناحية الأدبية واللغوية ، وهذه الأداة «الأدبية واللغوية» ضرورة لدى الداعية ، بل إن الشيخ يرى أنها لازمة للداعية كلزوم الثقافة الدينية . وإذا كانت الثقافة الدينية لازمة للداعية في الدرجة الأولى؛ فإن الثقافة الأدبية واللغوية لازمة له كذلك ، ولكن الأولى تلزمه لزوم المقاصد والغايات ، والثانية تلزمه لزوم الوسائل والأدوات [٢].

ويؤكد الشيخ على ضرورة الثقافة الأدبية بقوله «والأدب – بشعره ونثره ، وأمثاله وحكمه ، ووصاياه وخطبه – مهم للداعية ، يثقف به لسانه ، ويجود أسلوبه ، ويرهف حسه ، ويقفه على أبواب من العبارات الرائقة ، والأساليب الفائقة ، والصور المعبرة ، والأمثال السائرة ، والحكم البالغة . ويفتح له نافذة على الروائع والشوامخ ، ويضع يده على مئات بل ألوف من الشواهد البليغة التي يستخدمها الداعية في محلها ، فتقع من القلوب أحسن موقع وأبلغه [٣].

ويحذر الشيخ من أخطاء الدعاة اللغوية ؛ التي يندى لها الجبين وينقصم منها الظهر فيقول : واللغة – بمفرداتها ونحوها وصرفها – لازمة لسلامة اللسان ، وصحة الأداء ، فضلاً عن حسن أثرها على السامع . بل صحة الفهم أيضاً ، فالأخطاء اللغوية – إن لم تحرف المعنى وتشوه المراد – يمجها الطبع ، وينفر منها السمع .

وانظر كم يقشعر جلدك ، ويضطرب فؤادك ، ويتأذي سمعك، حين تسمع داعية يقول : التُّبْعة وهو يريد : التَّبِعة . ويذكر الأُهُبَة وهو يريد الأُهْبَة .

---

(١) انظر من هذا الكتاب فصل «الوسائل والأساليب الدعوية عند القرضاوي» ومنها الكتب والشعر والمسرحية .

(٢) انظر : ثقافة الداعية ص ٩٨ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٩٩ .

وآخر ينصب المرفوع ، ويرفع المنصوب ، ولا يفرق بين فاعل ومفعول به ، ولا يبالي بإضافة ولا حرف جر .. فلا يكاد ينهي سطراً من الكلام إلا أضلك فيه ضلة ، أو لطمك ـ ولطم الخليل وسيبويه معك ـ لطمة أي لطمة .

وكثيراً ما يؤدي اللحن إلى إفساد المعنى ، وإخراجه إلى ما يناقض الشرع والعقل.

وشر ما يكون ذلك إذا كان اللحن في كتاب الله، كذلك الإمام الذي صلى أعرابي خلفه، فسمعه يقرأ « ولا تَنكحوا المشركين حتى يؤمنوا » قال: ولا إن آمنوا أيضاً لن ننكحهم ، فقيل له إنه يلحن ، وليس هكذا يُقرأ . فقال : أخِّروه قبحه الله لا تجعلوه إماماً . فإنه يحل ما حرم الله[1].

إن القرضاوي الداعية هو كذلك القرضاوي الأديب ، وموهبة القرضاوي الأدبية موهبة نادرة ؛ استطاع بها القرضاوي الأديب أن ينفع القرضاوي الداعية ، حتى غدا داعية أديباً وأديباً داعية ، ولو قدر للشيخ أن يتفرغ للأدب لكان عطاؤه أكثر مما هو عليه الآن ، وهو في هذا يقتدي بالإمام الشافعي يوم أن قال :

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

أسباب تمكن القرضاوي في الثقافة الأدبية واللغوية :

بدت منذ الصغر على القرضاوي الموهبة الأدبية ، فحبب إليه منذ الصغر قراءة الأدب ومتابعة كتابات الكبار أمثال: الرافعي ، والعقاد ، وطه حسين ، وأحمد أمين ، والزيات، وغيرهم ، ويقول الشيخ عن هذه البداية : وقد بدأت أنظم القراءة في غير الكتب المقررة التي لم تعد تشبع فهمي ، أو تملأ فراغ وقتي وحدها، فكان عندي وسيلتان لذلك :

الوسيلة الأولى: وسيلة دار الكتب بطنطا، التي كدت أصبح من روادها الدائمين، لأقرأ فيها كتب الأديب الشهير مصطفى لطفي المنفلوطي، الذي كان أدبه أحب إلى قلوب الشباب وعقولهم من غيره، لسلاسته وتدفقه وعذوبته،

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٩٨ .

وللموضوعات التي يطرقها، كما في كتابه الشهير (النظرات) بأجزائه الثلاثة. وكما في القصص التي ترجمها بأسلوبه الخاص، مثل العبرات وماجدولين وفي سبيل التاج والشاعر والفضيلة وغيرها.

كما كنت أقرأ لأديب طنطا مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، وأوراق الورد، والمساكين، وغيرها.

وأقرأ أحياناً لطه حسين والعقاد وأحمد أمين والزيات وغيرهم من كتاب مجلتي (الرسالة) و(الثقافة) الشهيرتين في ذلك الوقت.

والوسيلة الثانية: استئجار كتب معينة لقراءتها في أيام معدودة وردها إلى المكتبة، وقد كانت في طنطا مكتبة جعلت ذلك مهمتها، وسمت نفسها اسما دالاً على ذلك ، وهي (مكتبة فك الأزمة) في شارع درب الأثر بطنطا[1].

واستمر اهتمام الشيخ بدراسته الأدبية واللغوية حتى إتمام الشهادة الثانوية، وكان اختيار الكلية بالنسبة له أمر هام ، فاقترح عليه بعض الأصدقاء أن يتقدم إلى كلية « دار العلوم » فهي تأخذ المتفوقين من أبناء الأزهر ، وقال أصحاب هذا الاقتراح للشيخ : ستبرز في مجالي تخصصها : مجال الدراسات اللغوية ، ومجال الدراسات الشرعية[2].

واقترح آخرون للشيخ أن يتقدم لكلية « اللغة العربية » بالأزهر لتفوقه في علوم اللغة العربية ، لكنه رفض أيضاً لأنه رأى أنه نهل من علوم العربية وآدابها ما يروي ظمئه[3].

لكن دراسة الشيخ اللغوية لم تقف عند هذا الحد بل عاودته ثانية بعد تخرجه من كلية « أصول الدين » حيث التحق الشيخ بـ « معهد الدراسات العربية العالمية » التابع للجامعة العربية ، والتحق الشيخ بقسم اللغة والأدب ، بعد أن رفض المعهد قبوله في قسم القانون والفقه ، لأنه ليس من خريجي كلية

---

(١) انظر : ابن القرية حلقة ٩ .

(٢، ٣) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ٤٠٥ .

«الشريعة» وكانت الدراسة في المعهد فرصة ممتعة، فتحت للشيخ آفاقاً جديدة في دراسة الأدب واللغة ، لم تتح له في الأزهر [١].

وقد أنهى الشيخ دراسته بالمعهد واستدعاه رئيس القسم الدكتور «إسحق الحسيني» وحثّه على الاستمرار لنيل درجة «الماجستير» واتفق معه على الموضوع الذي سيكتب فيه ، وهو «النقد اللغوي» ليعالج الأخطاء اللغوية الشائعة ، ولكن الشيخ رأى أنه ليس من المصلحة تشتيت الجهد في أكثر من جهة ، خصوصاً وأن الشيخ وقتها كان قد انشغل بالدراسة في كلية «أصول الدين» لنيل درجة الماجستير [٢].

ويمكن القول بأن هذه الثقافة الأدبية لدى القرضاوي أثمرت الكثير والكثير، نعم أثمرت وأثمرت، وصنعت وصنعت، ويكفي أنها صنعت للشيخ لغة خاصة إلى حد ما يتميز بها بين الكُتّاب إن كتب، وبين الفقهاء إن صنف، ويصعب على أي باحث أن ينحي كتب الشيخ من دائرة الكتب الأدبية، وأي كتاب من هذه الكتب وإن لم يكن كتاب أدب في أصله فلا يخلو من الأدب المبثوث في ثناياه.

وقد أثمرت هذه الثروة الأدبية ما يلي:

١ – ديوان نفحات ولفحات.

٢ – ديوان المسلمون قادمون.

٣ – مسرحية يوسف الصديق.

٤ – مسرحية عالم وطاغية.

٥ – مذكرات ابن القرية والكتاب (ثلاثة أجزاء).

* * *

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج٢ ص ٢١٣ بتصرف .

(٢) انظر : المرجع السابق ج٢ ص ٢١٦ بتصرف .

ثالثاً : الثقافة التاريخية

للشيخ القرضاوي قراءات متأنية في التاريخ الإنساني بصفة عامة ، والتاريخ الإسلامي بصفة خاصة ، والسبب في ذلك أن الشيخ يرى أن التاريخ يعيد نفسه، وأنه كما قال العربي قديماً : ما أشبه الليلة بالبارحة ، وكأني بالشيخ يتحدث عن نفسه يوم أن وصف الإمام الندوي بقوله: والشيخ يملك حساً تاريخياً فريداً ، ووعياً نادراً بأحداث الكبار، والدرس المستفاد منه [١].

معنى التاريخ :

ويعرف التاريخ الدكتور: عبد العظيم الديب بقوله : إن التاريخ في حقيقته «ليس هو الحوادث »، ولا سردها وتبويبها، ولكنه تفسير هذه الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات ، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان .

وبهذا المفهوم للتاريخ تهرع الأمم في الأزمات والنكبات إلى تاريخها ، تستلهمه العبرة والعظة، وتستضيء به حاضرها ومستقبلها.

والتاريخ بهذا المعنى ليس علم الماضي، وإنما هو علم الحاضر والمستقبل، ولذا كان حرص أعدائنا على طمس تاريخنا وتشويهه، ، لتضليل الحاضر، وطمس الطريق إلى المستقبل[٢].

ويرى الشيخ القرضاوي أن التاريخ: هو ذاكرة البشرية وسجل أحداثها وديوان عبرها ، والشاهد العدل لها أو عليها[٣]، وأنه من الضروري أن يستشهد الداعية للمعاني والقيم التي يدعو إليها بأحداث التاريخ ومواقف الأبطال ، وغير الأبطال [٤].

---

(١) انظر : الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته ص ٨٣ .

(٢) انظر : نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي مرجع سابق ص ١٥-١٧ .

(٣) انظر : ثقافة الداعية ص ٨٩ .

(٤) انظر : المرجع السابق ص٨٨ .

ويؤكد الشيخ هذا المعنى في كتابه الجديد « تاريخنا المفترى عليه » فيقول: إن التاريخ هو ذاكرة الأمة، وأعداء الأمة يريدون أن يمحو ذاكرتنا التاريخية، بحيث ننفصل عن ماضينا وننسى أمجادنا ونهيل التراب على تراثنا وحضارتنا، ونبدأ من الصفر، مثل الأمم التي لا تاريخ لها، فإذا لم يستطيعوا محو ذاكرتنا سعوا إلى إفسادها، فحشوها بمعلومات خاطئة، أو مقلوبة، أو مزورة، عن رسالة الأمة، وحضارتها وتاريخها ورجالها وتراثها. وبهذا تنخلع الأمة من جذورها، ويلعن آخرها أولها، وتمسي أمة بلا جذور ولا أعماق.

إن تاريخ كل أمة مادة أصيلة في تربيتها لأبنائها، ولا سيما إذا كانت أمة ذات تاريخ عريق ومجيد، وكان لها دورها ورسالتها وأثرها في العالم. على أن الواجب على الأمة أن تتعلم من مآثرها وأمجادها التاريخية، كما تتعلم من أخطائها ونقاط ضعفها [1].

ويرى الشيخ بأن هذا أعون على تثبيت هذه القيم والمعاني في العقول والقلوب؛ فإن الكلمات قد تنسى، ولكن الوقائع قلّما تنسى [2].

وكما أن التاريخ عند الشيخ هو ذاكرة البشرية فهو كذلك عنده: ذاكرة الأمة ومرآة ماضيها التي تنطلق منها إلى مستقبلها، ولا يجوز للأمة أن تهمل تاريخها وتبدأ من الصفر إلا إذا كانت أمة فاقدة لذاكرتها؛ فهي أمة مريضة إذن ومبتلاة، ولو جاز هذا لأمة من الأمم لما جاز لأمتنا الإسلامية التي صنعت تاريخاً من أعرق التواريخ، وحضارة شامخة الذرى؛ فاقت الحضارات بشمولها وتوازنها وربانيتها وإنسانيتها وأخلاقيتها، فلا غرو أن يهتم العلماء والمفكرين بالتاريخ وكتابة التاريخ[3].

كما أن التاريخ عند الشيخ هو: مخزن العبر، ومعلم الأمم، فكما أن الفرد

---

(١) انظر: تاريخنا المفترى عليه ص ١٠.

(٢) انظر: ثقافة الداعية ص ٨٨.

(٣) انظر: لقاءات ومحاورات ج ١ ص٥٨.

يتعلم من أحداث أمسه لغده ، فإن الأمة أيضاً تأخذ من ماضيها لحاضرها ، وتستفيد من صوابها وخطئها معاً ، ومن انتصاراتها وهزائمها جميعاً [١].

وهوكذلك المرآة التي تتجلى فيها سنن الله تعالى في الكون عامة ، وفي الاجتماع البشري خاصة [٢].

ولقد ندد الشيخ بمن يهمل تاريخ أمته، وعدَّ هذا النوع من الناس فاقداً للذاكرة ؛ يقول الشيخ : والتاريخ إنما هو في الواقع ذاكرة الأمة الحافظة الواعية ، والأمة التي تهمل تاريخها أشبه بالفرد يفقد ذاكرته ، ويعيش ليومه وحده ، بلا ماض يعرفه ويبني عليه ، إنه إنسان مبتلى ، مقطوع الجذور ، يرثى لحاله ، وهو أحوَج ما يكون إلى العلاج [٣].

ودراسة التاريخ عند الشيخ لا تعني دراسة التاريخ الإسلامي فحسب ، ولكن تعني دراسة التاريخ البشري كله ، فليست العبر في التاريخ الإسلامي وحده .. يقول الشيخ : على أننا لا نعني بالتاريخ ، تاريخ المسلمين فحسب ، بل تاريخ البشرية حيثما عرف ، وتاريخ الأمم في أي أرض كانت، وفي أي عصر كانت ، وعلى أي ملة كانت ، مسلمة أو غير مسلمة ، فالعبرة لا تؤخذ من سير المؤمنين وحدهم ، بل تؤخذ من المؤمن والكافر، ومن البر والفاجر ، لأن الفريقين تجري عليهما سنن الله بالتساوي ، ولا تحابي هذه السنن أحداً شأنها شأن السنن والقوانين الطبيعية [٤].

كما أن الشيخ لا يريد من قراءة التاريَخ مجرد القراءة ؛ إنما يريدها قراءة ببصيرة نافذة ، ووعي حاضر ، فليس من المهم قراءة الأحداث مسرودة متتابعة ، بل المهم النفاذ إليها ومعرفة العبرة منها والوصول إلى سنن الله فيها [٥].

والشيخ حين ينظر إلى التاريخ فإنه يراه تاريخاً يستوعب حياة الساسة

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ١٠٠ .
(٢، ٣، ٤، ٥) المرجع السابق ص ١٠١ - ١٠٣.

والقادة ، كما أنه تاريخ الأمم والرعية ، إنه تاريخ يسجل حياة الناس سياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً ودينياً .

وحين يحكم الشيخ على التاريخ فيؤكد بأن الحكم ينبغي أن يكون : بمجموع أحداثه ووقائعه، وبكل فئاته وطبقاته ، وبجميع أقطاره وأمصاره ، وبالمقارنة بينه وبين غيره من تواريخ الأمم في عصره. وهنا نجد تاريخنا يتميز على كل تواريخ الأمم في تلك العصور[١].

وحين ينظر القرضاوي إلى التاريخ الإسلامي فإنه لا يعني أنه تاريخ ملائكة مطهرين، أو أنبياء معصومين ، لا خطايا فيه ولا أخطاء كما يفهم من كلام بعض المتحمسين الذين يكتبون تاريخ الإسلام بعاطفة المحب، لا بعقل الباحث[٢].

وللشيخ في قراءته التاريخية بروز واضح[٣]، ويظهر ذلك في كتاباته، وخطبه ، ومحاضراته ، حين ينزلها الشيخ على الواقع ، فهو يستشهد على عز الإسلام بأيام الإسلام الأولى ؛ أيام خالد في اليرموك ، وسعد في القادسية ، وعمرو في أجنادين ، وطارق في الأندلس ، وصلاح الدين في حطين ، وقطز في عين جالوت ، ومحمد الفاتح في القسطنطينية .

ويحذر من الفرقة التي تؤدي إلى الضياع ، ويربط بين حال المسلمين اليوم وبين حالهم أيام الصليبيين في بلاد الشام والأندلس ، فيجعل السبب في الهزائم قديماً هو خيانة الضعفاء والمنافقين من الحكام مما ساعد على قيام إمارات وممالك للصليبيين في ديارنا .

ويرى القرضاوي اهتمام الداعية بالثقافة التاريخية ، أمراً مهماً وأن الداعية إنما يحتاج إليه لعدة أمور أهمها :

(١، ٢) انظر : تاريخنا المفترى عليه ص ٩ .

(٣) ولهذا رأينا المنشغلين بالتاريخ يسترشدون بآراء الشيخ، وأذكر منهم الدكتور: علي محمد الصلابي، وقد حضرته وهو يخبر الشيخ بأنه أنهى كتابه عن بني أمية، وأنه استفاد من كتاب الشيخ «تاريخنا المفترى عليه» وأنه بصدد الكتابة عن الدولة العباسية، وسيتعرض للحروب الصليبية، وطلب من الشيخ بعض التوجيهات فأسداه بعض النصائح والتوجيهات.

١ – أنه يوسع آفاقه ، ويطلعه على أحوال الأمم ، وتاريخ الرجال ، وتقلبات الأيام بها وبهم ، فقد يرى الإنسان بعين بصيرته كيف تعمل سنن الله في المجتمعات بلا محاباة ولا جور : كيف ترقى الأمم وتهبط ؟ وكيف تقوم الدول وتسقط ؟ وكيف تنتصر الدعوات وتنهزم ؟ وكيف تحيا الحضارات وتموت ؟ وكيف ينجح القادة ويفشلون ؟ وكيف تنام الشعوب وتصحو ؟

٢ – أن التاريخ أصدق شاهد على ما يدعو إليه الدين من قيم ومفاهيم . فهو مرآة مصقولة تتجلى فيها عاقبة الإيمان والتقوى ، ونهاية الكفر والفجور ، وجزاء الشاكرين نعمة الله ، وعقوبة الكافرين بها ، وكيف يجني من يغرس الخير، ويحصد من يزرع الشوك .

٣ – أن التاريخ كثيراً ما يعين على فهم الواقع الماثل ، ولا سيما إذا تماثلت الظروف ، وتشابهت الدوافع .

وأكثر من ذلك أن بعض القضايا الحاضرة لها جذورها التاريخية البعيدة الأغوار، فمن لم يعرف أغوار ماضيها لم يدرك أسرار حاضرها. فالصدام بين الإسلام والمسيحية في هذا العصر لا يعرف حق المعرفة ما لم يعرف صراع الحروب الصليبية ، وما دفع إليها من بواعث ، وما صحبها من دمار ، وما خلفته من آثار وما أسفرت عنه من نتائج.. بل لا يعرف إلا من بداية الصراع منذ موقعة اليرموك وفتوح الشام ومصر وإفريقية في عهد الراشدين . بل منذ معركة مؤتة وغزوة تبوك في عهد النبي ﷺ .

٤ – أن بعض جوانب التاريخ لها صلة وثيقة بعمل الداعية واهتماماته ، وأعني الجانب العقلي أو الفكري في التاريخ ، مثل : تاريخ الأديان : نشأتها وتطورها ، وأهم الشخصيات والوقائع المؤثرة في سيرها وما آلت إليه في النهاية[١].

وقراءة الشيخ للتاريخ ليست قراءة عادية ، إنه يقرأ التاريخ بعين ناقدة ،

---

(١) انظر : ثقافة الداعية ص ٨٨ ، ٨٩، ٩٠ .

وبصيرة نافذة ، إنه ينظر إليه كما ينظر الصيرفي إلى الذهب فيبعد الدخيل عن الأصيل .

لقد قرأ الشيخ التاريخ بعين المحدث لا بعين الإخباري ، ومن ثم فإنه يقف عند كل حادثة يستشهد فيدقق في سندها ومتنها ، ويأخذ منها ما يؤكد فكرته، لذا يقول الشيخ : إن تاريخنا الإسلامي قد كتب نقلاً عن روايات شفهية ينقص أكثرها السند والتوثيق ، لهذا كان من أهم ما نحتاج إليه في كتابة تاريخنا هو توثيق المصادر ، ولا أعني بتوثيق المصادر مجرد أن يقال : هذه الواقعة ذكرها الطبري أو البلاذري أو ابن الأثير في كتابه كذا الجزء كذا ، فهذا ليس توثيقاً (١).

و يقول الشيخ فيما شاع في حادثة الهجرة من أمر العنكبوت والحمام: هل كان هناك عنكبوت ؟ هل كان هناك حمام ؟

أما الحمام فلم تصح فيه رواية قط ، ولم تأت رواية لا صحيحة ولا حسنة بهذا الأمر ، وأما العنكبوت فوردت هناك رواية حسنها من حسنها وضعفها من ضعفها ، ثم يقول الشيخ : وعلى كل حال فإن لله جنوداً قد يكون منها هذا العنكبوت الذي وصف الله بيته بأنه أوهن البيوت ، فلا عجب أن يحفظ الله رسوله بأوهن البيوت (٢).

وحين تمسك العلمانيون بمقالة للخليفة العباسي المنصور : حين قال : أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، تصدى الشيخ لهذا الاستشهاد التاريخي وفنده من جهتين :

الأولى: من جهة أصله التاريخي : فهو نقل من كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه ، والشيخ يرى كما يرى - غيره - أن كتب الأدب لا تعد في عداد المراجع في المسائل الفقهية .

---

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ج ١ ص٥٩ .

(٢) انظر : خطب الشيخ القرضاوي ج٤ ص ١٤ .

الثانية : أنه وإن قالها فهي كلمة هو قائلها ، لا يؤخذ منها حكم ولا توجيه، فلسنا مأمورين باتباع سنة المنصور [١].

وثقافة الشيخ التاريخية جعلته يدعو الدعاة عند اقتباسهم من التاريخ أن يدركوا أمرين :

الأول : أنه ليس كل ما تحويه كتب التاريخ صحيح مائة في المائة ، فكم حوت مراجع التاريخ من مبالغات وتشويهات وتحريفات، تكذبها الحقائق الثابتة بالاستقراء أو بالموازنة بالأدلة الناصعة في مصادر أخرى [٢].

الثاني : أن التاريخ كما تعرض للتحريف والتشويه في كتابته ، تعرض كذلك للتحريف والتشويه في تفسيره ، فالماركسيون يفسرونه تفسيراً مادياً طبقيا ، والقوميون يوجهونه وجهة قومية ، فالإسلام في نظرهم انتفاضة عربية ، أو وثبة من وثبات العبقرية العربية [٣].

ويرجع الشيخ مسؤولية تشويه « تاريخنا المفترى عليه » على ثلاثة أصناف فيقول: وأود أن أقول بصراحة: أننا – نحن المسلمين – المسؤولون أولاً عن إشاعة هذه الصورة عن تاريخ أمتنا. وأول المسؤولين عن ذلك ثلاثة أصناف من علمائنا، هم: المؤرخون والأدباء والمحدّثون[٤].

ويرى الشيخ أن مسؤلية المؤرخين تتمثل في أمور أربعة، وهي:

أولها: أنهم تساهلوا كل التساهل في رواية الأحداث المتعلقة بالفتن بين الصحابة رضي الله عنهم، وبدولة بني أمية، ولم يمحصوا هذه الروايات، ولم يبحثوا في الأسانيد، ويخضعوها لميزان الجرح والتعديل، كما فعلوا ذلك حينما بحثوا في أحكام الفقه وغيره.

والأمر الثاني: ولعهم بالغرائب، وركونهم إلى المبالغات والتهاويل، وذكر

---

(١) انظر : بينات الحل الإسلامي ص ١٧٠ وما بعدها .
(٢) انظر : ثقافة الداعية ص ٩٣ بتصرف .
(٣) انظر : المرجع السابق ص ٩٦ ، ٩٧ بتصرف .
(٤) انظر : تاريخنا المفترى عليه ص ٢٢٩ .

أرقام وأعداد ومقادير لا يمكن أن يقبلها منطق، أو يصدقها عاقل، إلا إذا أعطى عقله إجازة !

والأمر الثالث: أن كتب التاريخ العام التي صنفها المؤرخون الكبار: جعلت أكبر همها، ومحور بحثها وعنايتها: الجانب السياسي والعسكري في التاريخ، وكأنها قصرت التاريخ على الملوك والحكام ومن يدور في فلكهم من القواد والأعوان، ولم تعط مساحة كافية للشعوب والجماهير والفئات والطبقات المختلفة في قلب المجتمع.

والأمر الرابع: عدم التركيز على الجانب المشرق، والنقاط المضيئة في تاريخ الإسلام، وهو فرع عما ذكرناه من الاهتمام بالتاريخ السياسي أكثر من الاهتمام بالتاريخ الإصلاحي والتجديدي، والاهتمام بسير الخلفاء والملوك أكثر من الاهتمام بسير الشعوب والجماهير، ومن يقودها يعلمها ويرشدها من العلماء والمربين والدعاة[1].

أما كتب الأدب فيرى الشيخ أن هذه الكتب: تروي حكايات الأدب في شعره ونثره وطرائفه وأقاصيصه وأساطيره.. وتحكي أخبار الأدباء والشعراء ومن يلحق بهم في جدهم وهزلهم، وفي صحوهم وسكرهم، وفي وقارهم ومجونهم، وفي استقامتهم وانحرافهم، وهي تقصد بذلك: إمتاع القارئ وتسليته، وشغل فراغ وقته بما يضحك ويلهي، وبما قد يحزن ويبكي، فليس المقصود من هذه الكتب التحقيق العلمي، والتمحيص التاريخي.

وطالما أن هذه الكتب بهذ المستوى فلا يجوز لنا الاستشهاد بما فيها.

أما المحدثين فقد أوقع الشيخ الملامة عليهم لأمرين:

الأول: أن المحدثين - أو كثيرا منهم - يشاركونهم في حمل قدر من المسؤولية. وذلك بما نقلوه من الروايات التي تحصر الخلافة الراشدة - خلافة النبوة - في مدة ثلاثين سنة بعد رسول الله ﷺ، ثم يكون بعدها الملك العضوض.

---

(١) انظر: المرجع السابق ص٢٣٠ وما بعدها بتصرف.

الثـاني: أنهم ساقوا أحاديث كثيرة في الفتن وأشراط الساعة، توحي إلى قارئها: أن الإسلام في إدبار، والكفر في إقبال، وأن كل زمان شر مما قبله بإطلاق، وأن الخير يقل، والشر يكثر، وأن الأخيار يتأخرون، والأشرار يتقدمون، مما ترك انطباعا لدى الكثيرين: أنهم في آخر الزمان، وأن الساعة توشك أن تقـوم، وأنها لا تقوم وفي الأرض من يقول: الله، الله[1].

وللشيخ اقتراح طالما نادى به وهو أن تعاد كتابة التاريخ مرة ثانية ولكن بطريقة المحدثين لا بطريقة الإخباريين فيقول: وواجبنا الآن أن نراجع منهج المحدثين ـ أي منهج الجرح والتعديل ـ في نقد الأسانيد التي تروى بها الوقائع التاريخية في أمهات الكتب وفي غيرها من الكتب التي تروى بالأسانيد أيضا ولو كانت كتب أدب كالأغاني، أو العقد الفريد أو نحو ذلك[2].

ويذكر الشيخ آفتين يجب الابتعاد عنهما عند كتابة التاريخ، وهما:

الأولى: ضعف التوثيق: وهذا يعني أن نعيد النظر في أسانيد الروايات، فإذا كان الراوي صاحب نحلة ويروي ما يروج نحلته، ويؤيد طائفته، فلابد أن نقف منها موقف المتشكك إن لم يكن موقف الرافض. وكذلك إذا كان الراوي متهما بالكذب أو بفحش الغلط وعدم الضبط، أو نحو ذلك، مما يسقط اعتبار روايته أو يشكك في قبولها. أعني أن لابد هنا أن نستعين بمنهج المحدثين، وإن كان جمهور المؤرخين يرفضون ذلك، لأنهم لا يحسنون هذا المنهاج.

الثانية: سوء تفسير التاريخ: حيث يتعرض التاريخ للتحريف والتشويه في تفسيره.

ولهذا شدد الشيخ النكير على الدعاة الذين تسرعوا في أحكامهم على تاريخنا الإسلامي فيقول: ومما يعجب له المرء ويأسف أيضاً: أن يقع بعض الدعاة في هذا المأزق الحرج، ويصدق كل ما قيل عن بني أميه، حتى ربما أصابت نباله من الخليفة الثالث ذي النورين، الذي تستحي منه الملائكة، أحد السابقين

---

(١) انظر: المرجع السابق ص٢٦٦ - ٢٦٩.

(٢) انظر: لقاءات ومحاورات ج١ ص٦٠.

الأولين من المهاجرين : عثمان بن عفان رضي الله عنه . وقع في ذلك رجال كبار القدر ، عظماء المنزلة والأثر في الدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيله : مثل الإمام العلامة أبي الأعلى المودودي في باكستان : في كتابه «الخلافة والملك» والذي جلب عليه ما جلب من القيل والقال . وإن كان هذا مغموراً في بحر حسناته.

وكذلك الأديب الكبير، والداعية المفكر ، والمجاهد الصلب: الشهيد سيد قطب في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» الذي حمل فيه على بني أمية حملة عنيفة، حتى جردهم من اعتبار العنصر الأخلاقي في سياستهم وتعاملهم.

وأيضاً الداعية الكبير محمد الغزالي في كتابه « الإسلام والاستبداد السياسي » الذي قال فيه عن يزيد بن معاوية: إنه لا يصلح لإدارة مدرسة ابتدائية، وصوب سنان قلمه إلى بني أمية بصفة عامة.

وأضيف إليهم الداعية العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي الذي أطلق على بني أمية أحكاماً عامة، ما كنت أحب أن تصدر عن مثله .

وعندما كتب الشيخ عن « تاريخنا المفترى عليه» رأى لزاما عليها أن يعدد مآثر ومفاخر هذا التاريخ، وذكر منها:

١- عمق الجانب الرباني.

٢- وضوح المعاني الإنسانية.

٣- رسوخ القيم الأخلاقية.

٤- شيوع التسامح الديني.

٥- قدرة الإسلام على الانتشار السلمي.

٦- القدرة على تجاوز المحن الكبرى[١].

* * *

(١) انظر: تاريخنا المفترى عليه ص ١٢٨ وما بعدها .

رابعاً : الثقافة العلمية

من الثقافات التي يحتاج إليها كل داعية في دعوته ما تعارف عليه بالثقافة العلمية[1]، والمقصود من هذه الثقافة كل علم يقوم على الملاحظة والتجربة ، مثل الفيزياء والكيمياء ، والطب والفلك .... وغيرها .

والشيخ القرضاوي إن كان عد هذا النوع من ثقافات الداعية، فقد استطاع أن يحصل من هذه الثقافة العلمية ما يؤيد به عدداً من القضايا الدينية ، ويوضح عدداً من المفاهيم الشرعية ، فضلاً عن أن يدافع بهذه الثقافة، ويرد بها شبهات الخصوم ، ومفتريات الأعداء بما ثبت عن طريق العلم الحديث .

وهذه الثقافة العلمية جعلت الشيخ يكثر النقل في عدد من كتبه من كلام علماء الرياضيات والفلك والفيزياء والطب وغيرها مما دونه « كريس موريسون » في كتاب « الإنسان لا يقوم وحده » والذي ترجم إلى العربية تحت عنوان « العلم يدعو إلى الإيمان » وكذلك يكثر النقل من كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » وهو مؤلف كتبه ثلاثون عالماً أمريكياً ، وكذلك كتاب « الإنسان ذلك المجهول » للدكتور « ألكسيس كاريل » .

ولعل هذا واضحاً فيما كتبه الشيخ في العقيدة وخصوصاً في « وجود الله » و « حقيقة التوحيد » و « الإيمان والحياة » وغيرها من كتبه حفظه الله .

وهذا ما جعل الشيخ يخالف شيخه « الغزالي أبا حامد » في كون تعلم هذه العلوم فضيلة لا فريضة ، والمتأمل في رد الشيخ القرضاوي على شيخه الإمام

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن العلوم التجريبية نشأت في أحضان الإسلام ، وبرع فيها كثير من أبنائه ، بل إن عدداً من علماء المسلمين استطاعوا أن يجمعوا بين العلوم التجريبية وبين علوم الشريعة ، و قد ذكر الشيخ القرضاوي من هؤلاء:

١ - جابر بن حيان الكيميائي المشهور ، وكان يسمى جابر الصوفي لكثرة زهده .

٢ - الخوارزمي مبتكر علم الجبر وإنما وصل إليه وهو يؤلف رسالة في علم الميراث .

٣ - ابن رشد الحفيد الفقيه المعروف وصاحب كتاب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» وصاحب كتاب «الكليات» في الطب وقد تتلمذت عليه أوربا .

٤ - الفخر الرازي صاحب التفسير الكبير كان من أشهر أطباء زمانه .

٥ - ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى كان أحد فقهاء الشافعية . انظر : تاريخنا المفترى عليه ص ١٣٧ .

أبي حامد الغزالي يرى فيه ثقافة الشيخ واطلاعه على الجديد في هذه الثقافة فيقول : هذا ولا نوافق الإمام الغزالي على اعتباره التعمق في دقائق الحساب ، وحقائق الطب: مجرد فضيلة لا فريضة ، فلعل هذا كان بالنسبة إلى زمنه، أما زمننا فيعتبر التعمق في هذه العلوم وما يشبهها من الرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء وعلوم الأرض «الجيولوجيا» والأحياء «الحيوان والنبات» وعلوم البحار والصحراء ، والتشريح ووظائف الأعضاء وغيرها ، بحيث يصل إلى دقائقها ، ويرتقي إلى حقائقها : فريضة لازمة ، والأمم تتسابق في هذا تسابقاً خطيراً ، كل منها تحاول أن تحتل مكاناً يجعل لها قدراً ، وأن تهيئ الفرص للنوابغ من أبنائها ليتعمقوا ويتفوقوا .

ولولا التعمق في هذه العلوم ما وصل عصرنا لتحطيم الذرة ، وغزو الفضاء، وصناعة الكمبيوتر والإنترنت والثورة التكنولوجية ، وثورة البيولوجيا «هندسة الوراثة والجينات» وثورة الاتصالات ، وثورة المعلومات ، وغيرها مما أمسى من خواص عصرنا .

وقد لا يكفي واحد متخصص في جانب لإسقاط الحرج والإثم عن الأمة ، إنما هذا بحسب الحاجة ، والغالب أن الأمة تحتاج في كل مجال إلى فريق من الخبراء ، يسدون الثغرة ، ويلبون الحاجة ، ويورثون الخبرة لمن بعدهم [1].

وفي فتاوى الشيخ وخصوصاً الجزء الثاني والثالث تلحظ مدى ثقافة الشيخ العلمية ؛ وعلى سبيل المثال ترى هذه الفتاوى في الجزء الثاني :

* قتل الرحمة أو تيسير الموت للمريض .
* زرع الأعضاء.
* الإجهاض بناء على تشخيص مرض الجنين .
* تحريم المخدرات .
* تحريم القات .
* إجهاض الحمل الناشئ عن اغتصاب .
* الاستنساخ : هل يجوز في البشر ؟

---

(١) انظر : كتاب نحو فقه ميسر معاصر ص ٢٠٠ .

* اكتشاف خريطة الجينات البشرية وموقف الإسلام .

والناظر إلى فتوى الشيخ فيما يعرف بالاستنساخ يرى مدى ثقافته العلمية يقول الشيخ : ولقد بدأت المخاوف التي خشيها الناس من تطور الهندسة الوراثية، تظهر فيما عرف اليوم باسم الاستنساخ حيث تمّ هذا الإنجاز العلمي في دنيا الحيوان في صورة النعجة « دوللي » الشهيرة ، التي لم تولد من التقاء الذكر بالأنثى، أو الكبش والنعجة ، أو التقاء الحيوان المنوي الذكري بالبييضة الأنثوية، كما هو المعتاد فيما خلق الله من حيوان وإنسان .

ولكنهم أخذوا بييضة من هذه النعجة المعينة ، وفرغوها من نواتها ، أي نزعوا منها النواة تماماً ، ثم جاؤوا بخلية حية من جسم النعجة ، ووضعوها مكان النواة ، فانقسمت وتكاثرت ، كما في البييضة الملقحة ، بعد أن وضعت في رحم الشاة ، وتم النمو الجنيني المعتاد ، حتى ولدت شاة كاملة ، مشابهة للشاة التي استنسخت منها تمام المشابهة. أي مشابهة التوأم للتوأم إذا كان من بييضة واحدة .

وبهذا أمكن تخليق نسخة أخرى طبق الأصل من النعجة التي أخذت منها البييضة ، وفي الإمكان استنساخ نعجات أو نسخ أخرى مطابقة تمام المطابقة للنعجة الأصلية في جسمها وشكلها ولونها وحجمها ونوع صوفها ... إلخ[1].

والثقافة العلمية في نظر الشيخ إنما هي ضرورة للداعية للأسباب الآتية :

١ – أنها مهمة لفهم الحياة المعاصرة وقد أصبح العلم شريانها والمحرك لكثير من أمورها .

٢ – أن بعض ما يعزى إلى العلم يتخذ وسيلة للتشكيك مثل نظرية التطور « دارون »، فلا بد من معرفة شيء عن مثل هذه النظرية حتى يمكن اتخاذ موقف محدد منها .

٣ – أن من هذه الحقائق ما يمكن أن يستخدمه الداعية في تأييد الدين وتوضيح مفاهيمه ، ونصر قضاياه[2].

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٥٢٣ – ٥٢٥ .

(٢) انظر : ثقافة الداعية ص ١١٣ ، ١١٤ بتصرف .

خامساً : الثقافة الإنسانية

يطلق على علم الاجتماع والنفس والإقتصاد والفلسفة والأخلاق : العلوم الإنسانية، وهذه العلوم ضرورية لكل داعٍ نصب نفسه داعية إلى الله تعالى ، خصوصاً في عصرنا الحاضر الذي انتشرت فيه هذه العلوم انتشاراً واسعاً بين المثقفين في عالمنا العربي والإسلامي على السواء ، ولكن مع انتشار هذه العلوم انتشرت معها سمومها ، وتسربت أضرارها في داخل مجتمعاتنا ، بعد أن ملئت بآراء تضر بالدين ، وتهدم العقيدة ، وتزلزل الإنسان ، من أمثال آراء فرويد في علم النفس ، ودوركايم في علم الاجتماع ، وماركس في علم الاقتصاد ، وغيرهم.

والشيخ القرضاوي حفظه الله ذا ثقافة إنسانية واسعة ، وهو وإن لم يكن متخصصاً فيها كلها ، فقد أصبح علماً مبرزاً في أحد علومها ، وعلى قدم راسخ في بقيتها ، ونقصد بذلك بأن الشيخ يعد من علماء الاقتصاد الإسلامي ، هذا إذا علمنا أن للشيخ من الكتب في هذا المجال :

١ – فقه الزكاة .

٢ – مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام .

٣ – بيع المرابحة للآمر بالشراء.

٤ – فوائد البنوك هي الربا الحرام .

٥ – دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي .

أما ما يعرف بعلم النفس والفلسفة والاجتماع فإن المتأمل لكتب الشيخ يجد أنه على إلمام واسع بهذه العلوم ، بل يقف من هذه العلوم موقف الناقد البصير ، والمتصفح الواعي، والمقتبس اليقظ .

وللقارئ أن يطالع كتب الشيخ وسيجد مدى هذه الثقافة الواسعة ، وليقرأ مثلاً ما كتبه الشيخ في سلسة كتبه : حتمية الحل الإسلامي :

١ – الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا.
٢ – الحل الإسلامي فريضة وضرورة.
٣ – بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمغتربين.
٤ – أعداء الحل الإسلامي .

إن كتب الشيخ مليئة بأقوال علماء النفس والفلسفة والاجتماع ، مليئة بأسمائهم، لكن الشيخ ينقل لينقد الباطل ، ويرد السموم ، ولكن إن وجد حقاً عندهم فلا مانع لدى الشيخ أن يستدل بأقوال العقلاء منهم . يقول الشيخ في معرض حديثه عن حاجة الإنسان إلى الصحة النفسية والقوة الروحية : ولهذا نرى الذين يعيشون بغير عقيدة راسخة يتعرضون أكثر من غيرهم للقلق النفسي، والتوتر العصبي، والاضطراب الذهني ، وهم ينهارون بسرعة إذا صدمتهم نكبات الحياة ، فإما انتحروا انتحاراً سريعاً ، وإما عاشوا مرضى النفوس ، أمواتاً كالأحياء ! على نحو ما قال الشاعر العربي قديماً :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيباً كاسفاً باله قليل الرجاء !

وهذا ما يقرره علماء النفس وأطباء العلاج النفسي في العصر الحديث . وهو ما سجله المفكرون والنقاد في العالم كله .

يقول المؤرخ الفيلسوف « أرنولد توينبي » : الدين إحدى الملكات الضرورية الطبيعية البشرية ، وحسبنا القول بأن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحي، تضطره إلى التماس العزاء الديني على موائد لا تملك منه شيئاً .

ويقول الدكتور « كارل يانج » في كتابه « الإنسان العصري يبحث عن نفسه » : إن كل المرضى الذين استشاروني خلال الثلاثين سنة الماضية ، من كل أنحاء العالم ، كان سبب مرضهم هو نقص إيمانهم، وتزعزع عقائدهم ، ولم ينالوا الشفاء إلا بعد أن استعادوا إيمانهم .

ويقول « وليم جيمس » فيلسوف المنفعة والذرائع : إن أعظم علاج للقلق –ولا شك – هو الإيمان .

ويقول الدكتور « بريال » : إن المرء المتدين حقاً لا يعاني قط مرضاً نفسياً .

ويقول « ديل كارنبجي » في كتابه « دع القلق وابدأ الحياة » : إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوي والاستمساك بالدين ، كفيلان بأن يقهرا القلق ، والتوتر العصبي ، وأن يشفيا من هذه الأمراض .

وقد أفاض الدكتور « هنري لنك » في كتابه « العودة إلى الإيمان » في بيان ذلك والتدليل عليه بما لمسه وجربه من وقائع وفيرة ، خلال عمله في العلاج النفسي[1].

ويتحدث الشيخ عن عجز العلم والفلسفة عن إيجاد مخرج بديل للإنسان عن الحضارات المادية : لقد تبين لنا أن إنسان العلم الحديث هو « ذلك المجهول » الذي لم يستطع العلم أن يسبر غوره ، وأن يتعرف على حقيقته ، وأن ينفذ إلى أعماقه ، كما بين ذلك « أليكس كاريل » و « رينيه دوبو » ، وغيرهما . لقد عرف العلم الجمادات أو المادة ، وحللها واكتشف قوانينها ، ولكنه عجز عن معرفة الإنسان ، لأن الإنسان من التركيب والتعقيد بحيث لا يعرفه إلا من خلقه فسواه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

وما دام العلم يجهل الإنسان ، فلا يؤمل منه أن يحسن توجيهه وتربيته والتشريع له ، بل بدا اليوم أن العلم – وبعبارة أدق : تطبيقاته التكنولوجية – أصبح خطراً على فطرة الإنسان ، وبيئة الإنسان .

و« إنسان الفلسفة » ليس أحسن حظًّا من إنسان العلم ، والفلسفة رغم اهتمامها بالإنسان – منذ أنزلها « سقراط » من السماء إلى الأرض ووجه العقل الإنساني إلى محاولة اكتشاف ذاته : اعرف نفسك – لم تتفق على رأي في نظرتها إلى الإنسان : أهو روح أم مادة ؟ جسم يفنى أم روح يبقى ؟ عقل أم شهوة ؟ ملاك أو شيطان ؟ الأصل فيه الخير أم الشر ؟ . . أهو إنسان كما نراه ، أم ذئب مقنع ؟ أهو أناني أم غيري ؟ أهو فردي أم جماعي ؟ أهو ثابت أم متطور ؟ أتجدي فيه التربية أم لا تجدي ؟ أهو مختار أم مجبور .

اختلفت الفلسفات في الإجابة عن هذه التساؤلات وتناقضت ، فلا تستطيع أن تخرج منها بطائل ، حتى قال شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود

---

(١) انظر : بينات الحل الإسلامي ص ٤٦ - ٤٧ .

وهو أستاذ الفلسفة في كلية أصول الدين – قبل أن يكون شيخًا للأزهر : الفلسفة لا رأي لها، لأنها تقول الرأي وضده، والفكرة ونقيضها.

هنا نجد الفلسفة الإلهية مناقضة للفسلفة المادية، والفلسفة المثالية مناقضة للفلسفة الواقعية، وفلسفة الواقع معارضة لفلسفة المنفعة أو اللذة، إلى آخر ما نعرفه من تناقضات في الساحة الفلسفية، فهذا يثبت، وذاك ينفي، وهذا يبني، وذاك يهدم.

ومن هنا لا تستطيع الفلسفة وحدها أن تهدي الإنسان سبيلاً أو تشفي له غليلاً، أو تمنحه منهجًا يركن له ويطمئن إليه ويقيم حياته على أساسه.

فهل تستطيع المذهبية الماركسية وفلسفة المادية الجدلية ـ التي كان لها بريقها ودعاتها، في عصرنا ـ أن تقوم بهذه المهمة ؟

ونقول : إذا عجز العلم ، وعجزت الفلسفة عن إنقاذ الإنسان المعاصر من الدمار المعنوي الذي يهدده صباح مساء ، فلا يتصور أن تكون « الماركسية » هي البديل الذي يقدم قارورة الدواء للمريض ، ومضخة الإطفاء للحريق كما توهم ذلك بعض الناس أيام نفاق سوق الماركسية [1].

إن هذه النصوص وغيرها توضح مدى اطلاع الشيخ على هذه العلوم ، وأقوال أصحابها ، بل إن كتب الشيخ مليئة بأسماء هؤلاء العلماء من أمثال : ألكسيس كاريل ـ رينيه روبو ـ هنري لنك ـ جون ديوي ـ جارودي ـ لوثين ـ بريال ـ ديل كارينجي ـ وليم جيمس ـ كارل باج ـ أجوست سياتيه ـ كونت كانت ـ ماكس نوردوه [2] .

وللشيخ نظرة ثاقبة في هذه العلوم التي تسمى بالعلوم الإنسانية ، إنه يرى أنها :

١ – تؤثر في تكوين الشخصية الإنسانية للفرد .

٢ – تؤثر في تكوين الشخصية الحضارية للأمة [3].

---

(١) انظر : الإسلام حضارة الغد ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٢) راجع في ذلك للشيخ من كتبه : الإيمان والحياة ، الإسلام حضارة الغد ، الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه ، بينات الحل الإسلامي ... وغيرها .

(٣) انظر : نحو فقه ميسر ص ٢١٣ .

كما يرى الشيخ بأن هذه العلوم : إن لم تكن معبرة عن عقائد الأمة ، وإنما تعبر عن مثل قوم آخرين فإن إثمها يكون أكبر من نفعها ، وتكون معول هدم لمعنوية الأمة ووحدتها [١].

بل يؤكد الشيخ بأن نقل هذه العلوم الإنسانية عن الآخرين نقلاً حرفياً بما وراءها من أصول نظرية واتجاهات فلسفية أشبه بـ « نقل الدم » من إنسان لآخر ، فإذا كان من فصيلة غير فصيلته ـ ولو كان نقياً من أي مكروب أو تلوث ـ فقد يكون سبباً في هلاك المنقول إليه ، فكيف إذا لم يسلم من التلوث[٢] .

ومع هذا فإن الشيخ لا يقف من هذه العلوم موقف الانغلاق المقيت ولا الانفتاح المزري ، ولكنه يرى الأخذ منها بضوابط ، لذا يقول : نريد أن نقف من هذه العلوم موقف الأحرار لا موقف العبيد ، نأخذ منها وندع ، وفقاً لمسلماتنا العقائدية والفكرية التي تميز شخصيتنا[٣] .

ويقول الشيخ حفظه الله أيضا : وإذا كانت العلوم الإنسانية في وضعها الغربي المعاصر : حافلة بالثغرات التي ذكرناها ، فلا يجوز لنا ـ باعتبارنا مسلمين لنا هويتنا الدينية والأخلاقية والثقافية والحضارية ـ أن نأخذها كما هي، على أنها قواعد مسلمة ، وحقائق ثابتة ، بل ندرسها بعقول متفتحة ، وبصائر نيرة ، غير متعصبين لها ولا عليها ، مستفيدين مما فيها من صواب ، وجوانب إيجابية ، متجنبين ما فيها من خلل وزلل، شأنها شأن كل جهد بشري، وكل فكر بشري ، فهو يحتمل الصواب والخطأ ، والاستقامة والانحراف .

فلا ينبغي لنا الإعراض عنها بالكلية ، لأنها من إنتاج غير المسلمين ، فالعزلة غير مقبولة ، كما لا يجوز لنا أن نأخذها بحذافيرها ، على أنها حقائق علمية يقينية ، فالتقليد الأعمى غير مشروع [٤].

ومن هنا فقد أبدى الشيخ ملاحظاته على هذه العلوم وجعل أهمها :

١ – أنها علوم ظنية تخمينية .

(١، ٢) انظر : نحو فقه ميسر معاصر ص ٢١٣ .

(٣) المرجع السابق..

(٤) انظر: المرجع السابق ص ٢٢٥ .

٢ – أن هذه العلوم غير محايدة بل تلعب الذاتية فيها دورا كبيرا .

٣ – أن هذه العلوم في صورتها المعاصرة علوم غربية ، وأن ما يدرس منها في جامعاتنا ليس أكثر من ترجمة إلا ما ندر ، ومن ثم فإنها ليست علوم عالمية الوجهة ولا إنسانية الطابع[١] .

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن ثقافة القرضاوي في العلوم الإنسانية لم تكن نتيجة القراءة العامة التي كان يحرص عليها كل عالم فحسب ؛ وإنما درسها القرضاوي دراسة منتظمة مرتين :

الأولى : في كلية أصول الدين.

الثانية : في تخصص التدريس بعد تخرجه من كلية أصول الدين، يقول الشيخ عن هذه الدراسة : وأعتقد أنا أخذنا جرعة كافية ومروية من علوم النفس والتربية ، وصلتنا أكثر بالحياة المعاصرة والثقافة المعاصرة . وكان مدرسونا وأساتذتنا في هذه العلوم من خريجي الجامعات المدنية والعصرية ، وليسوا من الأزهريين ، فكان في ذلك تلقيح لثقافتنا الأزهرية العتيقة[٢].

* * *

(١) انظر : المرجع السابق ص ٢١٤ ـ ٢١٨ بتصرف .

(٢) انظر : ابن القرية والكتاب ج٢ ص ١٥ .

سادساً : الثقافة الواقعية

من أدوات الشيخ القرضاوي ومؤهلاته الدعوية أيضاً ثقافته الواقعية ، بمعنى أن الشيخ ذو ثقافة واسعة بواقع الحياة التي يعيشها ، والمجتمع الذي يحيا به ، فالشيخ لم يكتف بالثقافة الإسلامية ولا التاريخية ولا اللغوية ولا الإنسانية ولا العلمية ، ولكنه ضم إلى هذه الثقافات ثقافة أخرى وهي ثقافة الواقع الذي يعيش فيه ، والعصر الذي وجد فيه ، إنها ثقافة تعني أن يكون الداعية على دراية بما في واقعه من نظم ، وما يسوده من مذاهب ، وما يتحرك فيه من تيارات ، أن يكون على دراية بآلام الأمة وأحزانها ، وأفراحها وأتراحها ، ومصائبها ونكباتها ، وصراعتها ومشكلاتها .

إن هذه الثقافة الواقعية تجعل الداعية لا يجلس مراقباً من برج عاجي ، لكنه جندي في ميدان المعركة ، يقلب النظر هنا وهناك ، ويرجع البصر كرتين ، مراقباً حال أمته وما يحاك بها ، أو يدبر لها بليل .

والواقعية عند القرضاوي تعني أن يكون الداعية على إلمام بما يلي :

١ – معرفة واقع العالم الإسلامي سياسياً واقتصادياً وجغرافياً وثقافياً .

٢ – معرفة واقع القوى المعادية للإسلام كاليهود والصليبيين والشيوعية ، وكذلك المؤسسات المشبوهة كالماسونية .

٣ – معرفة واقع الأديان المعاصرة كاليهودية ، والنصرانية ، والهندوكية ، والبوذية .

٤ – معرفة واقع المذاهب السياسية المعاصرة كالشيوعية والرأسمالية الاشتراكية .

٥ – معرفة واقع الحركات الإسلامية المعاصرة .

٦ – معرفة واقع الفرق المنشقة على الإسلام ، كالبهائية والبابية .

٧ – معرفة البيئة المحلية التي يعيش فيها الداعية [١] .

---

(١) انظر : ثقافة الداعية ص ١١٩ وما بعدها باختصار .

إن هذه الثقافة الواقعية هي التي جعلت الشيخ يكتب في مجالات شتى :

فحين رأى الشيخ اجتهاداً في غير محله أخرج كتابه : «الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط».

وحين علت أصوات القائلين بإباحة فوائد الربا أخرج كتابه «فوائد البنوك هي الربا الحرام».

وحين يرى أمتنا وقد أهدرت الوقت فيخرج كتابه : «الوقت في حياة المسلم».

وحين يرى الصحوة الإسلامية في حاجة إلى ترشيد فيخرج لها «أين الخلل» ، و«أولويات الحركة الإسلامية».

وحين يرى رقاب العلمانيين تشرأب هنا وهناك يسكتهم بكتبه : «الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه» ، ولما أسفرت العلمانية عن وجهها في تركيا و تونس أخرج كتابه « التطرف العلماني» .

وحين تطاول أحدهم وزعم أن الأمة الإسلامية وهم وخيال ، أخرج الشيخ كتابه «الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم».

وحين رأى فشو ظاهرة التكفير في المجتمع أخرج رسالته القيمة « ظاهرة الغلو في التكفير ».

وحين رأى تهاون البعض في قضية فلسطين أخرج الشيخ كتابه الرائع «القدس قضية كل مسلم».

وحين طلّت العولمة برأسها على العالم حدد الشيخ موقف المسلمين من العولمة في كتابه « المسلمون والعولمة ».

هذه الثقافة الواقعية هي التي نوعت كتابات الشيخ وعددت كتبه ، لذا فإن الشيخ لم يقصر نفسه على نوع واحد من الكتابات ولكنه عدد وصنف .

والشيخ حين يكتب في أي اتجاه فإنما يكتب عن علم ودراية ، يقول الشيخ عن موقف المسلمين من العولمة : وللناس من العولمة مواقف ثلاثة ، طرفان وواسطة، شأن الناس في معظم القضايا الكبيرة إما مُفْرطون أو مُفَرّطون أو متوسطون .

فأما الطرف الأول فهو طرف المندفع إلى العولمة ، والمتحمس لها ، السابح في تيارها ، ممن يتعاملون معها بغير قيود ولا تحفظ . كالذين ذكر عنهم الحديث النبوي أنهم يتبعون سنن غيرهم من الأمم ، شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخل الآخرون جحر ضب لدخلوه .

وهذا موقف الغلاة من دعاة « التغريب » ودعاة « التطبيع » في عالمنا العربي الإسلامي .

وأما الطرف الآخر ، فهم عكس هؤلاء ، يهربون من المواجهة، ويلوذون بالصومعة ، وينكفئون على الذات، في عزلة وتقوقع، وغيبة عما يدور به الفلك حولهم في دنيا الفكر، ودنيا الاقتصاد ، ودنيا السياسة، وغيرها ، مؤمنين بسياسة إغلاق الأبواب، التي تهب منها الرياح ، خشية أن تحمل هذه الرياح بعض الأتربة أو الأهوية الضارة . مع أن الحاجة إلى هذه الرياح مؤكدة .

وهذا هو موقف كثير من الخائفين من اللقاء مع الآخرين، من المتمسكين بكل قديم، والمتوجسين من كل جديد .

وأما الواسطة فهو الموقف المقبول ، الذي يمثل المنهج الوسط للأمة الوسط . إنه موقف المؤمنين القوي البصير المنفتح ، المعتز بهويته ، الواعي لرسالته ، المتمسك بأصالته ، المؤمن بعالميته ، المغالي بثقافته ، وحضارة أمته ، الذي لا يفر من المواجهة ، ولا يخاف من الحوار ، بل ينطلق من أفق واسعة ، ويقف على أرض صلبة . يأخذ ويعطي ، ويستقبل ويرسل ، ولا يفرط في خصائصه الذاتية، ولا مقوماته الأساسية [1].

وحين يتحدث عن الصهيونية وما تريد فيقول : تريد الصهيونية العالمية أن تهيمن على العالم شرقيه وغربيه ، وبعبارة صريحة : تريد أن « تهود » العالم . وليس معنى « تهويد » العالم أن يدخل في الديانة اليهودية ، فاليهود لا يعنون بنشر دينهم ، وهو بطبيعته ليس ديناً عالمياً انتشارياً . إنما هو « دين قومي » مغلق

---

(١) انظر : المسلمون والعولمة ص ١٣١ ، ١٣٢ .

على أهله . إن عقائده وشرائعه وطقوسه وأحلامه وجنته تدور حول « إسرائيل » وشعب إسرائيل ، وملك إسرائيل . حتى « الله » ذاته ، هو « رب إسرائيل » وليس « رب العالمين » كما هو عندنا نحن المسلمين .

فما معنى « التهويد » إذن ؟

التهويد المقصود هنا : أن يسخر اليهود العالم لمصلحتهم ، ليدور في فلكهم ، وتحقيق أحلامهم ، وأن يغسلوا أدمغة البشر ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، مما فيها من مفاهيم ومواريث فكرية ، ليملأوها بما يشاءون من أفكار ، يلقنونها على أنها حقائق مسلَّمة ، وإن كانت في الواقع أباطيل وترهات .

التهويد هنا : أن يكونوا هم « عقل العالم » كما تدل على ذلك « بروتوكولات » حكماء صهيون ، التي نشرت في لغات العالم المختلفة ، وإن شكك فيها الكثيرون ، ولكن الواقع يصدقها بالفعل[1] .

ويتحدث الشيخ عن الليبرالية وفشلها في مجتمعاتنا فيقول : إن السبب الأول – الذي نعتبره سبب الأسباب – لفشل الليبرالية عندنا ، أننا – نحن المسلمين – لا نؤمن بها، ولا بشريعتها ، ولا نمنحها عن رضا ولاءنا واحترامنا ، بل نؤمن أعمق الإيمان ، أن الليبرالية الديمقراطية نظام قاصر ، ككل الأنظمة التي يضعها البشر لأنفسهم بعيداً عن هدى الله ونوره ، فتأتي – حتماً – مليئة بالثغرات ونقاط الضعف والقصور ، التي تنكشف للناس يوماً بعد يوم، وما ذلك إلا لأن البشر أنفسهم قاصرون قصوراً ذاتياً . فهم محدودون بطبيعة تكوينهم وثقافتهم وتأثير عصرهم وبيئتهم ومحيطهم ، زيادة عن تأثير ميولهم ونزعاتهم وأهوائهم التي لا يجسر إنسان على ادعاء العصمة منها . ولهذا لم تبرأ الليبرالية الديمقراطية من عيوب ذاتية مصاحبة لها ، لا يزال المفكرون والمصلحون يحاولون علاجها . ولهذا كان ينقصها النظرة العميقة الشاملة المتوازنة إلى الدين وإلى العلم ، وإلى الفرد والمجتمع ، وإلى الحياة والكون ، فقد جاءت نظرتها إلى هذه الأمور جانحة إلى الغلو الإفراط ، أو التقصير والتفريط .

---

(١) انظر : أعداء الحل الإسلامي ٧٠ .

ولا عجب أن وجدنا أهلها أنفسهم يكتشفون عجزها وقصورها ، وينصرفون عنها أو يعدلونها ، أو يثورون عليها ، ذاهبين إلى أيديولوجية أخرى مضادة لها ، فينتقلون من النقيض إلى النقيض .

وهذا سبب عام لفشل الليبرالية وتخبطها وعجزها عن إسعاد المجتمعات التي سارت فيها أزماناً غير قصيرة (١).

إن الثقافة الواقعية لدى الشيخ القرضاوي لم تجعله يتقوقع داخل الفقه كما يريده البعض بمعناه الضيق ، فقه العبادات أو المعاملات فحسب ، إنما جعلت من الشيخ نذيرا كلما بدت في الأمة ثلمة ، أو ظهر عليها اعتداء ، فتراه يزأر للمستضعفين في أفغانستان ، واللاجئين في فلسطين والمشردين في كشمير، والمطاردين في الفلبين والمتآمر عليهم في العراق، فضلاً عن رده على المتطاولين والمنافقين من العلمانيين .

* * *

(١) انظر : الحلول المستوردة ص١١٧ .